الحزب الشيوعي السوداني
1946 1971
البيت الذي بناه عبد الخالق




محمد محمود

الحزب الشيوعي السوداني

1946 - 1971

البيت الذي بناه عبد الخالق

محمد محمود

العمل: الحزب الشيوعي السوداني 1946 – 1971
البيت الذي بناه عبد الخالق
المؤلف: محمد محمود
رقم الإيداع:
تاريخ النشر: 2018

ردمك:
تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: التعاونية الأفريقية، قسم التصميم
الناشر: دار عزة للنشر والتوزيع
الإدارة: شارع الجامعة، الخرطوم، جنوب وزارة الصحة
ت 183787200 (249+)
التوزيع: دار عزة للنشر والتوزيع
ت 183787200 (249+)
السودان الخرطوم ص ب 12909
بريد إلكتروني: azzaph@yahoo.com

إهداء خاص من الناشر

اسمحوا لي أن أهدي هذا العمل القصير لأحد سكّان البيت الذي بناه عبد الخالق وهو السيد ميرغني سعيد بابكر من قطاع الطباعة ومن زمن النقابيين الشرفاء — زمن الشفيع وقاسم. فهو أول من عرّفني على هذا العمل عندما طلب مني أن أوفّره له، وكنت لم أسمع به. وبعد البحث وصلت للكاتب الصديق الدكتور محمد محمود، الذي تكرّم بإهداء العمل لدار عزّة دون أي شروط. له تقديري.

أقول، وبعد خمسين عاما من العمل في مجال النشر والكتاب، ما زلت أتعلّم من القارىء السوداني وهذا الشعب المعلّم. وكما قال شاعر الشعب:

نحن شعبنا مدرستنا

يا هو أمّنا يا هو يابا

يا هو البيزيدنا صلابة

يا هو البيديكم شهادة الميلاد ويابا

ويا هو البميّز بين حكومة وعصابة

نور الهدى

محمـد محمـود باحـث وأسـتاذ جامعـي ومديـر مركز الدراسـات النقديـة للأديان.

شكر

أتقدّم بالشكر الجزيل لكل الأصدقاء الذين أعانونني بمدهم لي بالمواد التي احتجت لها أثناء كتابة هذا المعالجة أو اجتهدوا لمساعدتي. الشكر الجزيل للبروفيسر فاروق محمد إبراهيم والدكتور أحمد عباس والدكتور خالد عايس والأستاذ راشد سيد أحمد والأستاذ سيف بشير والأستاذ شريف ياسين والدكتور صديق الزيلعي والأستاذ طلعت محمد الطيب والدكتور عادل فاروق والأستاذ عبد الوهاب همت والأستاذ عزيز كامل.

كما أتقدّم بالشكر الجزيل لمركز آفاق جديدة للدراسات لسماحه بإعادة نشر هذه المعالجة التي كانت قد ظهرت أصلا في كتاب **هل يمكن تجديد الحزب الشيوعي السوداني؟** الذي حرّره صدّيق الزيلعي (2016).





إلى ذكرى عبد الله السماني، طالب الكلية المهنية بمدني، الذي أحرق نفسه احتجاجا على حلّ الحزب الشيوعي وإخراج نوابه من الجمعية التأسيسية في ديسمبر 1965.

رأى ثورة أكتوبر السودانية تُولد ثم يتلقّى قلبها النابض بدفق الديمقراطية والحامل لوعد غد أفضل طعنةً نجلاء. وقرّر أن يقدّم حياته قربانا للديمقراطية.

لا يُذكر بالكاد. ولكن تضحيته يجب ألا تذهب سدى ويجب ألا يطويها النسيان — وكيف تذهب أدراج الرياح ذكرى تضحيةٍ مواطن أعزل من أجل ديمقراطيةٍ ظلّت دوما عزلاء؟

1

منذ تأسيس الحركة السودانية للتحرر الوطني في أغسطس 1946 والتي كانت نواة الحزب الشيوعي السوداني (الحزب الشيوعي فيما يلي) ظل الحزب الشيوعي هو القوة الأساسية والمهيمنة لليسار السوداني.

وتاريخيا كانت مصر هي البوابة الرئيسية التي فتحت السودانيين على الحركة الشيوعية. وما يمكننا تقريره في واقع الأمر أن تراث الحركة الشيوعية السودانية، بل وتراث اليسار السوداني عامة بمدارسه الأخرى، هو تراث شرق أوسطي بمعنى أن ما حدث في مصر خاصة ومنطقة الشرق الأوسط العربي بوجه عام لعب الدور الحاسم في تكوين الهويات الإيديلوجية المحدّدة لقوى اليسار السوداني وخاصة الحزب الشيوعي.

ولقد كانت الحركات الشيوعية المنظّمة في مصر والشرق العربي بدورها وليدة الأثر الزلزالي لانتصار الحركة الشيوعية الروسية بقيادة فلاديمير إيليتش لينين وانتزاعها للسلطة في أكتوبر 1917. وعقب ذلك بأقل من عامين وفي مارس 1919 أنشأ لينين الأممية الشيوعية أو الكومنترن (Communist International or Comintern) والتي أعلنت أن هدفها هو "التأسيس الفوري لديكتاتورية البروليتاريا على المستوى العالمي على ضوء انحلال الرأسمالية الوشيك. وهو هدف يفترض استلام سلطة الدولة وتحطيم آلة الدولة البرجوازية، كما يفترض أن ديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة النظامية لقهر الطبقات المستغِلة، ولاستبدال الديمقراطية البرلمانية بحكم ذاتي تمارسه الجماهير عبر المؤسسات التي تنتخبها بنفسها، ولانتزاع رأس المال، ولإلغاء المِلكية الخاصة لوسائل الانتاج وتحويلها لِملكية الدولة."[1] كان هذا الموقف الجذري الهادف لشنّ ثورة عالمية تسقط البرجوازية أينما كانت امتدادا لموقف لينين الذي عبّر عنه عام 1905 في كراسته **تكتيكان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية** والذي ذهب

.1

Julius Braunthal, *History of the International 1914 – 1943*, vol. 2, trans. by John Clark (London: Nelson, 1967), pp. 165–166.

[ترجمتنا]

فيه إلى أن البرجوازية الروسية عاجزة عن إنجاز مهام التحوّل وأن المرحلة هي مرحلة تحالف بين البروليتاريا والفلاحين لإقامة "دكتاتوريتهم الديمقراطية" التي ستعقبها دكتاتورية البروليتاريا. ولم تعكس صيغة الكومنترن هذا الموقف النظري فحسب وإنما عكست أيضا الثقة المفرطة بالنفس التي أحسّ بها البلاشفة بعد أكتوبر 1917 والتي جعلتهم ينظرون لروسيا بوصفها المركز الجديد للثورة العالمية وجعلتهم ينظرون "للماركسية–اللينينية" بوصفها نظرية هذه الثورة. وقد ظهر كل هذا بصورة جلية عندما طرح لينين عام 1920 الشروط الإحدى وعشرين للانضمام للكومنترن والتي وضعت الأحزاب الشيوعية فعليا تحت سلطة الحزب الشيوعي الروسي. وكان الشرط الثامن بين هذه الشروط ذا أهمية خاصة للشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية، إذ يعلن: "إن من الضروري على وجه الخصوص أن تقوم الأحزاب الشيوعية للبلاد التي تسيطر برجوازياتها على مستعمرات وتضطهد شعوبا أخرى بتحديد موقف واضح وجلي حول مسألة المستعمرات والشعوب المضطهَدة. إن كل حزب يرغب في الانضمام للأممية الشيوعية يضطلع بالتزام أن يكشف ويعرّي حِيلَ وخِدعَ قواه الإمبريالية الخاصة في المستعمرات، وأن يساند كل حركة تحرير في المستعمرات ليس فقط بالكلام ولكن بالفعل، وأن يطالب بقذف مواطنيه الإمبرياليين خارج المستعمرات، وأن يغرس في قلوب عمال وطنه علاقات أخوية صادقة بالعمال من سكّان المستعمرات والشعوب المضطهَدة، وأن يقوم بالعمل الدعائي المتصل وسط جنود بلاده ضد أي اضطهاد للشعوب المستعمَرة."[2]

في هذا السياق العالمي الذي خضعت فيه البلدان العربية للاستعمار الأوربي وتأثرت بما يجري في الاتحاد السوفيتي نشأت الحركة الشيوعية العربية وتأسست أقدم الأحزاب الشيوعية في فلسطين (1919) ومصر (1922) ولبنان (1924) والعراق (1934). وفي حالة

2. المصدر السابق، ص 540.

السـودان فـإن البـذور الأولى للحركـة الشـيوعية ربـما كانـت موجـودة منـذ عشرينيـات القـرن العشريـن إن صـحّ أن حركـة اللـواء الأبيـض، والتـي كانـت مـن إرهاصـات تكـوّن الحـس الوطنـي السـوداني وحركتـه، ربـما قـد وصلتهـا ريـاح الهبّـة الثوريـة الآتيـة مـن أوربـا. فحسـب جعفـر محمـد عـلي بخيـت فإنـه وأثنـاء دراسـته لحركـة اللـواء الأبيـض عثـر عـلى مجلـة صـادرة مـن اتحـاد للطـلاب المصريـين في برلـين مبعوثـة لعـلي عبـد اللطيـف. وقـد حـوت المجلـة مقـالا يهاجـم مـشروع الجزيـرة واسـتغلاله للمزارعـين بنفـس اللغـة التـي هاجمـت بهـا جمعيـةُ اللـواء الأبيـض المـشروعَ، ويدعـو المقـال مزارعـي الجزيـرة للاتحـاد والثـورة.[3]

ويشـير بخيـت أن حكومـة السـودان كانـت ترصـد مجموعـة مـن الشـيوعيين الملتزمـين الذيـن كانـوا يعملـون في "إدارة السـكة حديـد في عطـبرة وكانـوا ينتمـون لأصـول أرمنيـة ومـن أوربـا الوسـطى والبلطيق" كـما يشـير لنشـاط خريـج مـن خريجـي المدرسـة المتوسـطة هـو عـلي أحمـد صالـح الـذي بـدأ نشـاطا نقابيـا في عطـبرة ونقلـه فيـما بعـد للخرطـوم من غـير أن يسـتطيع الجـزم عـما إن كان مـا فعلـه قـد تـم بتأثـير المجموعـة الشـيوعية الأوربيـة في عطـبرة أم بتأثـير مـصري.[4] ولقـد انضـم عـلي

3.

Jaafar Muhammad Ali Bakheit, *Communist Activities in the Middle East between 1919 – 1927 with Special Reference to Egypt and the Sudan* (Khartoum: Sudan Research Unit, 1968), pp. 6–7.

4. المصـدر السـابق، ص 9 – 10. يشـير تقريـر حكومـي أن إحـدى الجمعيـات العاملـة في عطـبرة في الثلاثينيـات كانـت جمعيـة اسـمها جمعيـة المطرقـة والمنجـل كوّنتهـا مجموعـة مـن الموظفـين السـاخطين الذيـن كانـوا يطالبـون بحـق تكويـن نقابـات. انظـر

Ahmad A. Sikainga, "Organized Labor in Contemporary Sudan: The Story of the Railway Workers of Atbara,"



أحمد صالح لجمعية اللواء الأبيض وكان، حسب بخيت، ذا قدرة تنظيمية فاقت قدرة عبيد حاج الأمين، ونجح في جذب عناصر جديدة للجمعية من بين العمال والحرفيين. إلا أن مسيرته السياسية انتهت نهاية محزنة عندما نجحت مخابرات حكومة السودان على ما يبدو في ابتزازه واستخدمته كشاهد ملك ضد رفاقه في اللواء الأبيض.[5]

وعندما ننظر لمجموع السياق الفكري والسياسي الذي نشأ فيه علي عبد اللطيف وظهرت فيه جمعية اللواء الأبيض فإن أثر ما حدث في روسيا وانعكاسه على المنطقة، وخاصة مصر، أمر لا يمكننا التقليل من أهميته.[6] وفي حالة علي عبد اللطيف نفسه يمكننا القول إن انتباهه للحركة الشيوعية ليس مستبعدا أو مستغربا إذ أنه كان على ما يبدو "واحدا من كبار مثقفي زمانه. فهناك ما يدل على أنه كان يدرس، في الفترة مباشرة قبل تأسيس اللواء الأبيض، تجارب الحركات الوطنية والحركات السياسية الحديثة ككل في مختلف البلدان ... "[7] إن طبيعة وعي علي عبد اللطيف الذي لم




South Atlantic Quarterly, vol. 109, no. 1 (Winter 2010), p. 46.

5. المصدر السابق، ص 10 – 13.

6. يشير أحمد خير لأثر تطورات الثورة الروسية إشارة مباشرة في تعداده للظروف التي اكتنفت حركة 1924 ويقول: "نشبت الثورة بعد أن انتصر البلاشفة على إنجلترا وفرنسا في "حرب التدخل" وجعلوا ينشرون تعاليم جديدة ويدعون للثورة العالمية ضد الاستعمار والاستغلال ولم تقف أنباء دعوتهم عند مصر، بل امتدت منها إلى السودان ... " **كفاح جيل** (الخرطوم: الدار السودانية، [1970])، ص 49.

7. يوشيكو كوريتا، **علي عبد اللطيف وثورة 1924: بحث في مصادر الثورة السودانية**، ترجمة مجدي النعيم (القاهرة:



يأبه بالاتهام العنصري له بأنه ''منبتّ قبليا''[8] وطفر ليرتفع فوق الوعي القبلي وفوق الوعي الديني التقليدي المتجذّر في الولاءات الطائفية الموروثة[9] ويطرح قيمة جديدة هي قيمة التمسك بُهوية ''سودانية'' تبحث عن حريتها وتحقّقها[10] — هذا الوعي انطوى

مركز الدراسات السودانية، 1997)، ص 76.

8. بعد أول مظاهرة نظمتها جمعية اللواء الأبيض نشرت جريدة **حضارة السودان** هجوما حادّا على المظاهرة قالت فيه: ''أهينت البلاد لما تظاهر أصغر وأوضع رجالها دون أن يكون لهم مركز في المجتمع بأنهم المتصدّون والمعبرون عن رأي الأمة ... من هو علي عبد اللطيف الذي أصبح مشهورا حديثا وإلى أي قبيلة ينتسب؟'' مقتبس في كوريتا، المصدر السابق، ص 77. حول تاريخ جريدة **حضارة السودان** والمواقف والمصالح التي عبّرت عنها انظر محجوب محمد صالح، **الصحافة السودانية في نصف قرن 1903 – 1953**، القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 1996، ص 38 – 49.




9. في الاجتماع التأسيسي لجمعية اللواء الأبيض عشية بدء المفاوضات بين الحكومة البريطانية وسعد زغلول بخصوص مستقبل أوضاع السودان قال علي عبد اللطيف لزملائه من المجتمعين ''والله نحنا اجتمعنا دلوقت لأنو حتكون في مفاوضات، المفاوضات دي دلوقت السيد عبد الرحمن عمل الاجتماع بتاعو وأعلن رايو ونحن ما بنعتقد إن النظار والعمد والمشايخ بيمثلونا لأننا نحنا ناس برضو عندنا رأي في الحكاية دي.'' كوريتا، المصدر السابق، ص 75.

10. أصّر أعضاء اللواء الأبيض في تحقيقات نوفمبر 1924 عقب تمرد السجن على تعريف أنفسهم ''كسودانيين'' عندما سُئلوا عن ''جنسهم''. وعندما أصرّوا على موقفهم ''جلدوا بوحشية، وأعلن الضابط البريطاني المسئول أنه لا يقبل ''سوداني'' كإجابة عن ''الجنس''. وقرروا إثر هذا تفادي الجلد بالإجابة ''بجعلي'' و''دنكاوي'' و''عربي مصري'' و''مولّد'' وهلم جرا.'' مقتبس من

علـى سـمات متميـزة جعلتـه متداخـلا ومتواشـجا مـع وعـي اليسـار السـوداني ورؤيتـه عندمـا ظهـر في المسرح الفكـري والسياسي لاحقـا.
إلا أن مـا يمكـن أن يقـال عـن وعـي عـلي عبـد اللطيـف ووعـي حركـة اللـواء الأبيـض مـن ناحيـة ووعـي أعضـاء جمعيـة الاتحـاد السـوداني،[11]

عبـد الكريـم السـيد، **اللـواء الأبيـض: تاريـخ ثـورة 1924، مذكـرات ومشـاهدات سـجين** (الخرطـوم: 1970) في كوريتـا، المصـدر السـابق، ص 34– 35. ويحكـي خـضر حمـد، وهـو ينتمـي للجيـل الـذي دخـل كليـة غـردون عقيـب ثـورة 1924، أنـه وبعـد التخـرج بُعـث ومجموعـة مـن زملائـه لمصلحـة الماليـة ويقـول "... سـألنا رئيـس كبـير هـو عيسـاوي بـك عـن أسـمائنا ثـم عـن أجناسـنا ولمـا قلنـا لـه سـودانيون ألـحّ في أن يعـرف قبائلنـا وصممنـا نحـن عـلى كلمـة سـوداني فلـم يكـن منـه إلا أن قـال لنـا أنـه غـير مسـتعدّ لتعييننـا إن لم يعـرف قبائلنـا فقلنـا لـه ذلـك شـأنك أمـا نحـن فـلا نعـرف لنـا قبائـل ولكننـا أبنـاء هـذا السـودان ولا ننتمـي إلى غـيره. وأخـيرا كتبهـا مـن الأوراق القديمـة غـير مقـرّ لمـا قلنـاه مـن أننـا سـودانيون." خـضر حمـد، **مذكـرات خـضر حمـد،** نـشر خـاص، 1980، ص 23.

11. يقـول محيـى الديـن جمـال أبـو سـيف، أحـد مؤسـسي جمعيـة الاتحـاد السـوداني، إن هـدف الجمعيـة كان وحـدة وادي النيـل، إلا أنـه يقـرّر في نفـس الوقـت أن الجمعيـة ضمّـت في عضويتهـا "ثلاثـة مـن قيـادات الحركـة الانفصاليـة "الاسـتقلالية" ... وهـم السـادة عبـد الله خليـل ومحمـد صالـح الشـنقيطي ومحمـد عـلي شـوقي وهـؤلاء كوّنـوا فيـما بعـد حـزب الأمـة الـذي نـادى بالاسـتقلال ..." عبـد المنعـم قطبـي وعـادل البـاز، "محيـى الديـن جمـال أبـو سـيف مؤسـس جمعيـة الاتحـاد السـوداني يتذكّـر"، **الملتقـي**، العـدد 91، السـنة الرابعـة، أول ديسـمبر 1993، ص 10. حـول تاريـخ الجمعيـة ومنطلقاتهـا انظـر محمـد سـعيد القـدال، **تاريـخ السـودان الحديـث 1820–1955** (القاهـرة: دون نـاشر، 1993)، ص 307–311.




التي سبق تكوينها اللواء الأبيض، من ناحية أخرى أن هذا الوعي كان في طور التكوين وتنازعه تياران ظلا يتنازعان الحركة الوطنية إلى ما قبيل الاستقلال وهما التيار الاستقلالي والتيار الاتحادي الداعي للاتحاد مع مصر. وهذا الانقسام في الوعي الوطني للسودانيين نشأ من واقع طبيعة الاستعمار الذي خضعوا له إذ كان استعمارا "ثنائيا" تشاركت فيه بريطانيا ومصر حكم السودان، وكان هذا واقعا شاذّا وغريبا إذ أن مصر نفسها كانت تحت السيطرة البريطانية عندما شاركت في غزو السودان عام 1898 ولم تنل إلا استقلالا اسميا عام 1922 تحت الحماية البريطانية. ولقد رأى السودانيون في الحركة الوطنية المصرية نموذجا جديرا بالاحتذاء والتضامن، وكانت ثورة 1919 عاملا حاسما في تشكيل وعي ثوار جمعية اللواء الأبيض.[12] إلا أن ما لم تستطع حركة 1924 حسمه كان السؤال الوجودي المتعلق بمستقبل السودان: هل هو وطن مستقل أم كيان ذائب في مصر؟




وكانت هناك طبقة أخرى أعمق في وعي السودانيين تفعل فعلها وتساهم في تشكيل وعيهم الوطني وهي ذاكرة تجربة الحكم التركي المصري وذاكرة ما أعقبه من تجربة حكم وطني في ظل الثورة المهدية. فدعوى محمد أحمد المهدي للمهدية لم يقبلها كلّ السودانيين وواجهت مقاومة من بعض العلماء[13] وبعض الطرق الصوفية وفي مقدمتها الطريقة الختمية. وهكذا فقد وجد أغلب السودانيين أنفسهم وهم يخوضون كفاحهم الوطني في فترة الاستعمار الثنائي منقسمين على المستوى الديني انقساما طائفيا عريضا لأنصار ينحازون للذاكرة المهدوية ويعادون مصر وختمية ينفرون من

---

12. حول هذه النقطة وما يمكن أن يوصف بتماهي علي عبد اللطيف مع سعد زغلول انظر كوريتا، **علي عبد اللطيف**، ص 74.

13. حول مقاومة العلماء للمهدية انظر عبد الله علي إبراهيم، **الصراع بين المهدي والعلماء**، القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 1994.



الذاكـرة المهدويـة وعـلى اسـتعداد للتعـاون مـع مـصر لـو قهرتهـم الظـروف.[14]

2

في هـذا الواقـع الـذي كان ناشـطو الحركـة الوطنيـة يبحثـون فيـه عـن مواقـع أقدامهـم ويطـورون رؤاهـم ومواقفهـم ولـدت الحركـة الشـيوعية السـودانية. ولم تختلـف بدايـات نشـوء هـذه الحركة عـن بدايـات الحركات الشـيوعية التـي نشـأت في باقـي البـلاد المسـتعمَرة مـن حيـث أن عنـاصر شـيوعية مـن البـلاد المسـتعمِرة أتاحـت الفـرصَ الأولى للتعـرّف عـلى الماركسـية–اللينينية. ولقـد مـرّت بنـا أعـلاه الإشـارة للنشـاط الشـيوعي المبكّـر في عطـبرة الـذي قامـت بـه عنـاصر أجنبيـة. وهكـذا وفي حالـة السـودان فـإن شـيوعيين مصريـين وشـيوعيين بريطانيـين لعبـوا هـذا الـدور في إنشـاء الخلايـا الشـيوعية الأولى وسـط السـودانيين. ويذكـر عبـد الماجـد أبـو حسـبو، القطـب الاتحـادي الـذي كان شـيوعيا نشـطا في شـبابه في مـصر، الـدور الرائـد لهيربـرت سـتوري (Herbert Storey) عضـو الحـزب الشـيوعي البريطـاني والـذي جـاء للسـودان وهـو في مقتبل العشرينـات كمجنّـد في الجيـش البريطـاني ونجـح في إقامـة صـلات مـع طـلاب في كليـة غـردون وكسـبهم لقضيـة الشـيوعية، وهـو نجـاح مـن

14. رغـم أن الصـورة العامـة للختميـة أنهـم "اتحاديـون" وخاصـة أن عـلي الميرغنـي عـاد للسـودان في ركاب جيـش الغـزو الثنائـي، إلا أن هـذه الصـورة تظلـم مواقفهـم التـي اتسـمت بجسّ نبـض الاتجـاه العـام للسـودانيين وبالمرونـة السياسـية. ولقـد أعلـن الميرغنـي في أبريـل 1922 في خطـاب ألقـاه في حـضرة المنـدوب السـامي البريطـاني: "إن السـودان بـلاد منفصلـة عـن مـصر لهـا جنسـيتها الخاصـة بهـا فيجـب أن تـترك في سـبيل التقـدم حسـب قواعـد الرقـي الخاصـة بهـا." **الأهـرام**، 6 مايـو 1922. مقتبـس في فيصـل عبـد الرحمـن عـلي طـه، **الحركـة السياسـية السـودانية والـصراع المـصري البريطـاني بشـأن السـودان 1936 – 1953** (القاهـرة: دار الأمـين، 1998)، ص 64.



الممكــن إدراك قيمتــه وحجمــه عندمــا نعلــم أن بعــض الذيــن كســبهم أصبحــوا فيــما بعــد مــن مؤسسي الحركــة الســودانية للتحــرر الوطنــي.[15] ومــع تقديــر القيمــة التاريخيــة لمــا حــاول الحــزب الشــيوعي البريطــاني أن يلعبــه إلا أن الأثــر الأكــبر والحاســم كان في واقــع الأمــر مــن نصيــب الحركــة الشــيوعية المصريــة.

وعندمــا نتحــدث عــن الأثــر الكبــير والحاســم للحركــة الشــيوعية المصريــة في فتــح أذهــان الجيــل الأول مــن الســودانيين للماركسـية- اللينينية واحتضانهــم وتنشــئتهم وصهرهــم عــبر النشــاط والكفــاح اليومــي في مــصر فإننــا نتحــدث أيضــا وبالدرجــة الأولى عــن أثــر رجــل واحــد هــو هنــري كوريــل (1914 – 1978) (Henri Curiel). كان كوريــل رجلا مــن طــراز فريــد (كــما وصفــه عنــوان كتــاب جيــل بــيرو في ســيرته التــي كتبهــا عنــه)[16] إذ أدار ظهــره، وهــو الأوربي اليهــودي، لثــراء أسرتــه وانحــاز لمــصر (التــي تجنــس بجنســيتها رغــم معارضــة أسرتــه) وألقــي بنفســه في خضــم الدفــاع عــن فقرائهــا.[17] كان متجــرّدا لقضيــة الثــورة




---

15. مذكرات عبد الماجد أبو حسبو، ص 105، مقتبس في
Mohamed Nuri el-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – I", *Middle Eastern Studies*, vol. 32, no. 3 (July 1996), pp. 25–26.

16.
Gilles Perrault, *Un homme à part*, Paris: B. Barrault, 1984.
ولقــد تمــت ترجمتــه للعربيــة بعنــوان **هنــري كوريــل: رجــل مــن طــراز فريــد**، ترجمــة كميــل داغــر (بــيروت: دار النضــال، 1986).

17. تحكــي روزيــت العجــم (Rosette Aladjam) زوجــة كوريــل عن قرارهمــا لمســاعدة الفلاحــين البؤســاء الذيــن كانــوا يعملــون في الأرض الضخمــة التــي كانــت تمتلكهــا أسرتــه: "ذهبنــا بالســيارة ونحــن نحمــل جالونــات مــن قطــرات العيــون وصناديــق مــن الأدويــة. كان التشــخيص بســيطا: إمــا الرمــد الحُبيبــي (التراخومــا) أو البلهارســيا. كانــت عيــون

وأعطاها كل ما يملِك. وحتى بعد طرده من مصر لم يفقد انتماءه



كل شخص تقريبا مصابة وأعطيناهم القطرات. وكانت البلهارسيا أيضا سببا للكثير من المعاناة ... وقضينا أياما طويلة على هذا الحال ونحن نخدم الناس. ولقد كانوا في غاية الامتنان لما نفعله إلا أنني أحسست بأنهم كانوا مرتبكين ومحرجين في علاقتهم بهنري إذ أنه كان في نهاية الأمر لا يزال ابن السيد. وكان الأب، دانيال كورييل، يتميّز غيظا مما يفعله ابنه. فرغم أن الأب كان ذا شفقة ورأفة كبيرة وكان يتبرع بسخاء للأعمال الخيرية اليهودية إلا أن الفلاح كان أمرا مختلفا بالنسبة له. لم يكن الفلاح بالشيء الذي يدخل دائرة اهتمام وسطه. ما كان ذلك حتى ليخطر بذهن أي شخص. كان والد هنري يعتبر زياراتنا لأملاكه أمرا يدلّ على سوء الذوق. واستمرت زياراتنا بضعة أشهر، ثم قرر هنري أن يتوقف. كان التباين بين البؤس الذي رأيناه وعلاجاتنا التي لا تُسمن ولا تُغني تباينا كاسحا وقاهرا. لم تكن هذه هي الوسيلة الصحيحة. لا بد من تغيير النظام برمته بدلا من الاكتفاء بتوزيع قطرات العيون. وقرر أن ينخرط في العمل السياسي باعتبار ذلك هو الوسيلة الوحيدة لخلق أثر حقيقي. إلا أنه لم ينسَ أبدا ما رأيناه في الأكواخ البائسة للفلاحين. أستطيع أن أقول إنه في الواقع لم يستطع بتاتا التخلصَ من تلك الصدمة التي أصابته عندما اكتشف بؤس الشعب المصري.“

Perrault, *A Man Apart: The Life of Henri Curiel*, trans. by Bob Cumming (London and Atlantic Highlands, NJ (USA): Zed Books, 1987), pp. 51–52.

[ترجمتنا]

لمصر وظلّ فاعلا في حركتها الشيوعية وانخرط في قضايا الشعوب المستعمَرة وكفاحها، ومات مقتولا وهو في معترك هذا الكفاح.

كان من الطبيعي أن يكون الأوربيون هم من فتحوا باب الماركسية للشعوب المستعمَرة لأن الماركسية نتاج فكري أوربي ليس متاحا بلغات هذه الشعوب. وهكذا وبالنسبة للأدبيات الماركسية في اللغة العربية فإنه "[و] حتى نهاية الثلاثينيات لم تكن أوليات [هذه] الأدبيات ... قد ترجمت إلى العربية، والشيوعيون المصريون ترجموا في مطلع العشرينات [كتابا وحيدا] هو **الدولة والثورة** ثم فشِلت محاولات لاحقة لترجمة كتب أخرى ... "[18] ولقد انعكست هذه




18. رفعت السعيد، **تاريخ المنظمات اليسارية المصرية 1940 – 1950** (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1976)، ص 118. ولقد أولت الحركة المصرية للتحرر الوطني مسألة الترجمة اهتماما خاصا وأصدرت سلسلة كتب نظرية مترجمة عُرفت باسم الكتب الخضراء "وربما كانت هذه السلسلة أول جهد مكثف في الوطن العربي كله لترجمة الأدبيات الماركسية". وقد قام بهذه المهمة مكتب كامل ومتخصص هو مكتب المثقفين. ويقول عضو الحركة فوزي جرجس: "وكانت الترجمة دقيقة جدا وتراجع أيضا بدقة من قبل متخصصين في اللغة العربية ومتخصصين في اللغة الإنجليزية. بل إننا اعتمدنا في عملية المراجعة على بعض أعضاء مجمع اللغة العربية." المصدر نفسه، ص 355. ويمكننا أن نستنتج استنتاجا راجحا أن عبد الخالق محجوب كان من المشاركين في عمل هذا المكتب، وهي مشاركة يشير لها إشارة غير مباشرة عندما يقول في معرض تعداده لمنجزات الحركة السودانية للتحرر الوطني أنها "استطاعت بالتعاون الصادق مع الحركة الشيوعية المصرية أن تقدم عموميات الماركسية اللينينية باللغة العربية." (**لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوداني** (الخرطوم: دار الفكر الاشتراكي، 1965)، ص 25). ولا شك أن مشاركة عبد الخالق المبكرة هذه كانت مما صقل قدرته الأصيلة وأدواته

الهيمنة الأوربية في المرحلة المبكرة لتأسيس الحركة الشيوعية المصرية في أن أهم ثلاثة تكوينات شيوعية كان يقودها أجانب يهود، وهي الحركة المصرية للتحرر الوطني (حمتو) بقيادة كورييل، وإيسكرا (الشرارة) بقيادة هليل شفارتز (Hillel Schwartz)، وتحرير الشعب بقيادة مارسيل إسرائيل (Marcel Israel)؛ وهو وضع كان لابد أن يتغيّر وخاصة في نهاية الثلاثينيات عندما كوّنت هذه التنظيمات الثلاثة الاتحاد الديمقراطي، واتسعت قاعدة الحركة الشيوعية وأصبحت قضية "تمصير" الحركة ضرورة طبيعية وملحّة. وعندها تباينت مواقف القادة الثلاثة إذ رأى كورييل "ضرورة البدء فورا في تأسيس تنظيم شيوعي يرفع شعار التمصير"، أما شفارتز فقد رأى أن "شعار التمصير هو شعار شوفيني وأنه لا فرق بين مصري وأجنبي في صفوف حركة أممية الأهداف"، بينما انحاز إسرائيل انحيازا تاما للتمصير وتشدّد فيه "إلى درجة منع الأجانب من المشاركة بأي دور قيادي."[19]




ولقد اهتم كورييل اهتماما خاصا بالنوبيين المقيمين في مصر كأقلية تعاني من التهميش وبالطلاب السودانيين القادمين لمصر للتعليم.[20]

وانعكس في لغته التي تميّزت بسلامتها ووضوحها وسلاستها وقوتها وجزالتها.

19. المصدر السابق، ص 179.

20. ربما نرى في ميل كورييل للسودانيين والنوبيين البعدَ النفسي لميل الأجنبي للأجنبي وتوحّده معه. فرغم أن كورييل وُلد في مصر واعتبر مصرَ وطنَه إلا أنه كان على مستوى معين "أجنبيا" وظلّ هذا الشعور بالأجنبية يطارده ويثقله بإحساس عدم القدرة على الاندماج الكامل إلى حد أنه خطر له في فترة أن يعلن إسلامه علّ ذلك يعينه على نيل درجة أكبر من القبول. وبالمقابل، فإن السودانيين والنوبيين، رغم ما يجمعهم من أواصر ثقافية بالمصريين، هم أيضا "أجانب" في المحيط المصري. وهكذا يمكننا أن نفترض

وكان الكيان التنظيمي (لحمتو) وفيما بعد الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) يقوم على الفئوية، إذ كانت هناك دوائر مثل المثقفين والطلاب والنساء والأجانب. وحسب هذا التنظيم الفئوي فإن النوبيين كانوا يشكلون فئة مستقلة عن السودانيين.[21] وكان عبده دهب من أوائل النوبيين الذين انضموا للحركة الشيوعية، وكان ضمن أول فوج في مدرسة الكادر (لحمتو).[22] وبعد دورته في مدرسة الكادر صعد دهب وأصبح عضوا في اللجنة المركزية.

ولعب دهب دورا هاما يحكي عنه قائلا: "عندما قابلت هنري كورييل حدثني طويلا عن رغبته في تأسيس مجلة تعمل على نشر الوعي في مصر، وكلفني بأن أبحث عن مجلة مصرية لاستئجارها حيث يصعب على أشخاص مثلنا الحصول على رخصة مجلة. وفعلا استأجرت مجلة **حرية الشعوب** ... واحتفظنا باسم المجلة وأضفنا إليه شعارا يقول إنها "مجلة مصرية سودانية عمالية ثقافية " ... "[23] وأصبحت المجلة لسان حال (حدتو) وأشرف دهب على تحريرها. وابتداءً من سبتمبر 1941 "بدأ اسم محيي الدين صابر وعبده دهب في الظهور على [صفحاتها] ... وبدأت المجلة تتحول لتوشك أن تصبح مجلة سودانية صرفة."[24] إلا




افتراضا نراه معقولا وهو أن شعور كورييل بالغربة جعله يميل للسودانيين والنوبيين الذين شاركوه هذا الإحساس بالغربة.

21. السعيد، **تاريخ المنظمات اليسارية المصرية 1940 – 1950**، ص 392.

22. يقول كورييل عن هذه المدرسة: "في يناير 1943 عقدت أول مدرسة كادر. وكانت هذه المدرسة نقطة تحول هامة فقد حضرها الكادر الأساسي الذي تولى قيادة الحركة فيما بعد ولهذا فقد اعتبرنا هذا اليوم هو تاريخ تأسيس ح م [حمتو]." المصدر السابق، ص 335.

23. المصدر السابق، ص 212.

24. المصدر السابق، ص 213.



أن (حدتو) وإثر الملاحقات البوليسية لها ما لبثت أن فقدت إشرافها على **حرية الشعوب**. وأعقب ذلك صدور مجلة **أم درمان** التي كانت تحت الإشراف الكامل (لحدتو) وكان يرأس تحريرها دهب وكانت ترفع شعار "الكفاح المشترك مع حق تقرير المصير"،[25] وبرزت على صفحاتها أسماء معظم كوادر قسم السودان وقسم النوبيين مثل محمد أمين حسين وعبد الماجد أبو حسبو وعز الدين علي عامر وحامد حمداي وصالح عرابي ومحمد خليل قاسم وزكي مراد صالح.[26]

وكان عبد الخالق محجوب (عبد الخالق فيما يلي) هو الأمل الذي رأى فيه كورييل مستقبل الحركة الشيوعية في السودان لما تميّز به من قدرات فكرية وقيادية فذّة. جاء عبد الخالق للماركسية والحركة الشيوعية من خلفية أسرية هيأته لقبول الفكر الاشتراكي.[27] وقد




25. المصدر السابق، ص 215. يقول دهب إن خط المجلة أزعج السراي "إلى درجة أن أحد سكرتيري الملك وهو حسن بك حسني اتصل بي وعرض عليّ 2000 جنيه مقابل أن أغلق المجلة وأن أسافر إلى السودان، فلما رفضت هددني بالقتل. وطلبت عقد اجتماع عاجل للجنة المركزية وعرضت عليهم الأمر، وقررنا أن نتحدى هذا التهديد." المصدر نفسه، ص 216.

26. المصدر السابق، ص 217.

27. كان منزل حسن وحسين عثمان (الكِد)، وهما من أفراد أسرته الممتدة، هو المكان الذي وُلدت فيه مدرسة أبي روف في أواخر العشرينيات. انظر

Afaf Abdel Majid Abu Hasabu, *Factional Conflict in the Sudanese Nationalist Movement 1918–1948* (Khartoum: University of Khartoum Graduate College Publications, 1985), p. 52.

نشأت هذه المدرسة، مثلها مثل جمعيات أخرى ظهرت في هذه الفترة

تـمّ تصعيـده للجنـة (حدتـو) المركزيـة بعـد فـترة قصـيرة مـن تكوينهـا ممثـلا للقسـم السـوداني.

وقـد قـال كوريـيـل إنـه كان صاحـب الاقـتراح الـذي أدّى لنشـوء الحركـة السـودانية للتحـرر الوطنـي (حسـتو) عندمـا تـمّ فصـل القسـم السـوداني من الحركـة المصريـة للتحـرر الوطنـي وتحويلـه لحركـة قائمـة بذاتهـا.[28] ورغـم

وبعدهـا، في جـو الشـعور بالانكسـار والإحبـاط عقـب حركـة 1924. ونشـأت المجموعـة مـن شـباب متعلمـين قريبـي المشـارب والأمزجـة، ورغـم خلفيتهـم الختميـة كانـوا متمرديـن عـلى الـولاء الطائفـي. وقـد بـدأوا كمجموعـة قـراءة تقـرأ بنهـم بالعربيـة والإنجليزيـة. وبحكـم خلفيتهـم الختميـة كانـوا قريبـين مـن مـصر ومتماهـين مـع الثقافـة العربيـة، إلا أن قراءاتهـم الإنجليزيـة فتحـت أعينهـم عـلى الاشـتراكية الفابيـة. ولقـد جعلهـم تأثرهـم بالفابيـة يهتمـون بالتعليـم والعـدل الاجتماعـي وكان هـذان همـا الهدفـان "اللـذان وضعاهمـا نصـب أعينهـم" وعملـوا "عـلى المسـاعدة في تأسـيس ملجـأ القـرش الـذي كان يهـدف إلى إيـواء اليتامـي والعجـزة" كـما سـاعدوا في إقامـة المـدارس الأهليـة. (خالـد حسـين عثـمان الكـد، **الأفنديـة ومفاهيـم القوميـة في السـودان،** ترجمـة محمـد عثـمان مكـي العجيـل (أم درمـان: مركـز عبـد الكريـم ميرغنـي الثقـافي، 2011)، ص 162). عـن شريحـة المتعلمـين في هـذه الفـترة وظـروف نشـأتها واهتماماتهـا انظـر حيـدر إبراهيـم عـلي، "بدايـات الانتلجنسـيا السـودانية الجديـدة"، **كتابـات سـودانية**، العـدد 2 (مايـو-يوليـو 1992)، ص 63-77.

28. هنـري كوريـيـل، **أوراق هنـري كوريـيـل والحركـة الشـيوعية المصريـة**، دراسـة رؤوف عبـاس، ترجمـة عـزّة ريـاض (القاهـرة: سـينا للنـشر، 1988)، ص 123-124. كان التلاحـم في مـصر بـين كفـاح السـودانيين والمصريـين، وخاصـة في القطـاع الطـلابي، وثيقـا إذ أن الطـلاب السـودانيين تشرّبـوا بفكـرة وحـدة الكفـاح المشـترك، وخاصـة أن دراسـتهم في مـصر جعلتهـم يحسـون بـولاء خـاص لهـا. ويقـرر





قيام حركة سودانية مستقلة إلا أن كورييل رأى ضرورة وجود علاقة استراتيجية بين الحركتين المصرية والسودانية وإن أبدى حسرته فيما بعد أن العلاقة في واقع الأمر "لم تتعد المشاعر" وأنه لا يعرف مواقف مشتركة اتخذت بالتنسيق بين الحركتين.[29] ولا شك أنه رأى في الحركة السودانية حليفا مؤثرا له ويتضح هذا من أن علاقته بعبد الخالق ظلت قائمة بعد طرده من مصر،[30] وأن الشيوعي السوداني آدم أبو سنينة كان ضمن الجهاز القيادي لمجموعة روما (الاسم الحركي للمجموعة

السعيد أن الطلبة السودانيين كانوا "يشكلون عونا مستديما لأجهزة حدتو الحزبية، ودائما كان هناك كوادر سودانيين يلعبون دورا هاما في صفوف المنظمة. وفي البداية كان هناك الجنيد علي عمر (عضو سكرتارية مركزية ومسئول الدعاية)، عمر محمد إبراهيم، وبابكر محمد علي اللذان توليا مسئوليات هامة في الأقسام العمالية بالقاهرة، وأحمد سليمان (الطلاب). وفي غمار الظروف الصعبة وعندما تتوالى الضربات البوليسية كانت حدتو تجد المدد الذي لا ينضب في الطلاب السودانيين الذين كانوا يفدون لمصر، وكانوا يضمون في صفوفهم العديد من أعضاء حستو ... وعندما استشهد الطالب السوداني الشيوعي صلاح بشرى في السجن نظمت حدتو بالاشتراك مع الطلاب السودانيين جنازة أثارت دهشة سكان القاهرة من ضخامتها ..." (**منظمات اليسار المصري 1950 – 1957**، ص 38–39). ويظهر وزن السودانيين في علاقتهم بمنظمة (حدتو– التيار الثوري) وكيف أن اعتقال زعيميها و"عددا من الأعضاء والكوادر وأغلبهم من السودانيين" وقرار الحزب الشيوعي السوداني "سحب كوادره من العمل في صفوف الشيوعيين المصريين" أدّى لانهيارها. (انظر المصدر السابق، 205).



29. كورييل، **أوراق هنري كورييل**، ص 124.

30. المصدر السابق، ص 47.



الحزبيـة التابعـة (لحدتـو) والتـي كانـت تعمـل مـن باريـس).[31]

وعندمـا نـأتي لتاريـخ إنشـاء (حسـتو) فـإن ثمـة تضـارب في تحديـده عـما إن كان عـام 1945 أم بدايـة 1946 أم تحديـدا تاريـخ 16 أغسـطس 1946،[32] إلا أن التاريـخ المُجمـع عليـه هـو صيـف 1946 عندمـا اجتمعـت "حلقـة صغـيرة مـن المثقفـين والعـمال والطلبـة، بعضهـم تأثـر بالضابـط البريطـاني سـتوري والبعـض الآخـر احتـكّ بالتنظيـمات الشـيوعية المصريـة وكونـوا أول حلقـة ونـواة للماركسـية – اللينينيـة في السـودان تحـت اسـم [حسـتو]."[33] ولقـد لعـب الطبيـب عبـد الوهـاب زيـن العابديـن (زيـن العابديـن فيـما يـلي)[34] دورا أساسـيا في جمـع أفـراد

31. السعيد، **منظمات اليسار المصري 1950 – 1957**، هامش ص 37.

32. انظر

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – I", pp. 28–29.

33. محمـد سـعيد القـدال، **معـالم في تاريـخ الحـزب الشـيوعي السـوداني** (لنـدن وبـيروت: دار كـوش ودار الفـارابي، 1999)، ص 33.

34. يقـول الدكتـور محمـد نـوري الأمـين عـن عبـد الوهـاب زيـن العابديـن (1918–1985) إنـه "وُلـد ... مـن أم شـلكاوية وأب دينـكاوي. كان والـده ضابطـا في الجيـش ومـن أقربـاء عـلي عبـد اللطيـف ... وربـما كان هـذا سـبب ابتعاثـه مرتـين كرسـول بـين ثـوار 1924 وحـزب الوفد في مـصر. وتلقّـى عبد الوهـاب جـزءا مـن تعليمـه في الكليـة القبطيـة بالخرطـوم وأكمـل دراسـته في مصر حيـث قـرر والـده أن يبقـى لأنـه كان ضمـن الضبـاط السـودانيين الذيـن رفضـوا أداء قسـم الـولاء للحاكـم العـام البريطـاني في السـودان. وتأهّـل عبـد الوهـاب في مصر كطبيـب وعنـد عودتـه للسـودان في أواسـط الأربعينيـات عمـل كطبيـب خـاص. وفي السـنوات الأولى لنظـام النمـيري وعندمـا كان اليسـار ذا نفـوذ عمـل عبـد الوهـاب ولفـترة قصـيرة سـفيرا في الصـين."

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – I", p. 37, n. 11.



هــذه النــواة وتنظيمهــا. وفي أول لجنــة تنفيذيــة كان المحامــي محمــد أمــين حســين مسـئولا سياسـيا وزيــن العابديــن مسـئولا تنظيميـا. إلا أن محمـد أمـين حسـين سرعـان مـا انسـلخ مـن (حسـتو) بعـد شـهور قليلـة والتحـق بالحركـة الاتحاديـة. وبخروجـه اختفى منصب المسـئول السـياسي وأصبـح زيـن العابديـن قائـدا للتنظيـم مـع احتفاظـه بلقـب المسـئول التنظيمــي.[35] وحســب زيــن العابديــن فــإن الرؤيــة التــي صاغتهــا (حسـتو) في هـذه الفـترة المبكّـرة لخّصتهـا الأهـداف الأربعـة التاليـة: حـق السـودان في تقريـر المصـير، ونـشر الوعـي الوطنـي الـذي أشـعله مؤتمـر الخريجـين بـين كل قطاعـات السـودانيين، وإنشـاء منظمـة سياسـية تضـمّ كل طبقـات السـودانيين مـع تركيزهـا عـلى العـمال والمزارعـين بوصفهـم عـماد الحركـة الوطنيـة، والإعـداد لثـورة اشـتراكية مـع مراعـاة أن هـذا الهـدف هـدف بعيـد المـدى وأن مجهـود الحركـة وعملهـا يجـب أن يتركّـز عـلى الأهـداف الثلاثـة الأولى.[36]




لم يختلـف مِـزاج زيـن العابديـن عـن مِـزاج الكثيريـن مـن أبنـاء جيلـه في أنـه لم يكـن يحبّـذ اتخـاذ الوسـائل الثوريـة ووسـائل المواجهـة المبـاشرة بقدرمـا كان يفضّــل وســائل العمــل المتــدرّج. ولقــد ركّــز في عملــه الداخــلي عــلى عنــصر التثقيــف الماركــسي للأعضــاء في حــدود المــادة العربيـة والإنجليزيـة التـي كانـت متاحـة، وعـلى إرسـاء عنـصر السرِّيـة في عمـل الشـيوعيين ونشـاطهم وعـدم جـذب الانتبـاه لهـم.[37] واسـتفادت

35. المصدر السابق، ص 34.

36. انظر

Mohamed Nuri el-Amin, “The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – II”, *Middle Eastern Studies*, vol. 32, no. 4 (October 1996), p. 251.

37. كان يعمــد دائــما ’’لوضــع الطربــوش حتــى يبــدو وكأنــه غــير راديــكالي وبأنــه تقليــدي إلى أبعــد الحــدود.‘‘

Ibid., p. 254.

(حسـتو) مـن علاقـة أعضائهـا بمؤتمـر الخريجـين فعمِلـت عـلى بـثّ تأثيرهـا مـن خلالـه. وقـد كُلِّلـت هـذه الخطـة في نوفمـبر 1947 بأكـبر نجـاح لهـا عندمـا أُجريـت انتخابـات اللجنـة التنفيذيـة لمؤتمـر الخريجـين وأُنتخـب زيـن العابديـن أمينـا كـما أُنتخـب عضـو آخـر في (حسـتو) هـو حسـن أبـو جبـل أمينـا للصنـدوق، وكان إسـماعيل الأزهـري رئيسـا للجنـة.[38] وعـلى مسـتوى العمـل الجماهـيري شـمِل عمـل (حسـتو) نشـاطا وسـط العـمال في عطـبرة[39] ووسـط المزارعـين في الجزيـرة وجبـال النوبـة ووسـط الطـلاب وموظفـي الحكومـة. إلا أن مثـل هـذا النشـاط مـا كان لـه إلا أن يكـون محـدودا لظـروف الإمكانيـات المحـدودة للحركـة الوليـدة مـن ناحيـة وظـروف السريـة مـن ناحيـة أخـرى.

ورغـم أن زيـن العابديـن كان حريصـا عـلى احتفـاظ (حسـتو) بعلاقتهـا بالحركـة المصريـة إلا أنـه كان يريـد ذلـك بشرطـه وهـو اسـتقلال الحركـة السـودانية. ولقـد انضـاف لذلـك عامـل آخـر ليخلـق صَدعـا محسوسـا في العلاقـة بـين الحركتـين وهـو عـدم ارتيـاح الحركـة الأمّ لتوجّـه زيـن العابديـن الـذي انبنـى عـلى التقـارب مـع الحركـة الاتحاديـة. وفي هـذا الجـو المعـادي لزيـن العابديـن نشـأ ظـرف في عـام 1947 أضـاف لمتاعبـه وهـو اصطـدام العـمال في عطـبرة في يوليـو بالسـلطات عندمـا خرجـوا




ولقـد نجحـت هـذه السياسـة في حجـب نشـاط الشـيوعيين عـن أعـين المخابـرات السـاهرة حجبـا تامـا إلى حـد أن تقريـرا للشرطـة في سـبتمبر 1947 أعلـن بثقـة أن ''النشـاط الشـيوعي في السـودان نـادر أو منعـدم.'' المصـدر نفسـه، ص 256.

38. المصدر السابق، ص 254.

39. يقـول مصطفـى السـيد، وهـو مـن أوائـل مـن انضمـوا للحركـة، أنـه أُبتعـث في عـام 1946 لمهمـة تنظيـم العـمال في عطـبرة وأنـه اسـتطاع أثنـاء تنفيـذه لمهمتـه كسـب ثلاثـة طـلاب في مدرسـة الصناعـات هـم الشـفيع أحمـد الشـيخ وقاسـم أمـين وإبراهيـم زكريـا. المصـدر نفسـه، ص 255.

في أول موكب عمالي في تاريخ البلاد مطالبين بالاعتراف "بهيئة شئون العمال" ممثلا شرعيا لهم، وهو مطلب ما لبثت الحكومة أن رضخت له.(40) ولقد كان تحرّك العمال هذا تحرّكا نابعا منهم وفاجأ كل القوى السياسية، مما جعل نقّاد زين العابدين يحسبون ذلك عليه ويعتبرونه تقصيرا وعجزا عن المبادرة بقيادة مطالب العمال.(41) وكان طلاب (حستو) الذين يزورون السودان من مصر في إجازاتهم مشبّعين، علاوة على حماسهم الشبابي،(42) بتقاليد الحركة المصرية في الخصومة وحِدّة المنازعة وتصعيد الخلافات. ولقد أوصل المعارضون لزين العابدين مناوأتهم له حدّ التصويت لمطالبته بأن ينزل إلى الشارع ويقوم بتوزيع المنشورات والكتابة على جدران




40. حول خلفية هذا الصراع وما ترتّب عليه انظر

Mohamed Omer Beshir, *Revolution and Nationalism in the Sudan* (London: Rex Collings, 1974), pp. 193–197.

Amad Alawad Sikainga, *"City of Steel and Fire": A Social History of Atbara, Sudan's Railway Town, 1906–1984* (Portsmouth, NH, Oxford, Cape Town: Heinemann, James Currey, David Philip, 2002), pp. 104–111.

41.

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – II", p. 260.

42. في عام 1947 شارك الطلاب الشيوعيون العائدون في إجازتهم من مصر في إلهاب الحماس والمعارضة ضد مشروع الجمعية التشريعية ويحكي حسن أبو جبل عما عُرف "بليلة ستالينقراد" عندما اقتحم الطلاب المتظاهرون دار مؤتمر الخريجين وحملوا أزهري على أكتافهم وخرجوا به للشارع وهم يهتفون، مما أدّى لاعتقال أزهري ومحاكمته وسجنه. المصدر السابق، ص 259.

المنـازل.[43] وهكـذا وفي صيـف 1947 وصـل الخـلاف داخـل (حسـتو) لطريـق مسـدود ووصلـت قيـادة زيـن العابديـن لنهايتهـا لتحـلّ محلهـا قيـادة جماعيـة تكوّنـت مـن "مجموعـة منهـم أحمـد محمـد خـير وعبـد القيـوم محمـد سـعد وآدم أبـو سـنينة وحسـن أبـو جبـل."[44] كان هـذا الترتيـب ترتيبـا مؤقتـا، وكانـت المجموعـة السـودانية في انتظـار أن يصِلهـا مسـئولها السـياسي الجديـد مـن مـصر، وهكـذا آل المنصـب لعـوض عبـد الـرازق (عبـد الـرازق فيـما يـلي)[45] حـال عودتـه للسـودان.

ولقـد لخّـص عبـد الخالـق فيـما بعـد المآخـذ عـلى فـترة زيـن العابديـن في النقـاط التاليـة:

— قيـادة الحـزب تنحـدر مـن أصـول برجوازيـة وذات نزعـة "انتهازيـة"؛

— تنكّـرت القيـادة لطبيعـة الحـزب كحـزب للطبقـة العاملـة وحوّلتـه لمجـرد "جنـاح يسـاري في نطـاق الأحـزاب الوطنيـة"؛




— ساير الحزب شعار "وحدة وادي النيل تحت التاج المصري"؛

— الثقافـة الداخليـة للحـزب كانـت ذات طبيعـة نصوصيـة ولم يكـن هنـاك اهتـمام بدراسـة أوضـاع البـلاد مـن وجهـة نظـر ماركسـية؛

— غياب قواعد لائحية تضبط العمل والعلاقات.

---

43. المصدر السابق، ص 260.

44. القدال، **معالم**، ص 47.

45. ولـد في رفاعـة (1926–1981) وكان والـده مأمـورا. بـدأ دراسـته الجامعيـة في مدرسـة الآداب بكليـة غـردون إلا أنـه لم يكملهـا وذهـب لمـصر حيـث دخـل مدرسـة الآداب بجامعـة فـؤاد الأول. أصبـح سـكرتيرا عامـا لمؤتمـر الشـباب، إحـدى منظـمات الحركـة الشـيوعية، ومـا لبـث أن فُصـل مـن الجامعـة بسـبب نشـاطه السـياسي. انظـر El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years –I", p. 37, n. 12.

ولقد رأى الثوريون في إزاحة زين العابدين انتصارا نهائيا على الخط المهادن للأحزاب وخاصة أحزاب الحركة الاتحادية وأسلوب العمل التدريجي والانضواء إلى مؤسسة مؤتمر الخريجين. لقد وصلوا نظريا إلى أن التحدي الذي ظلّ يواجه السودانيين قاطبة منذ فشل حركة 1924 هو تحدي صعود ''قيادة ومؤسسات اجتماعية يمكنها أن تنظم الشعب وتوحّد قواه الرئيسية وتقوده في طريق التحرر الوطني''،(46) وأحسوا بأن مهمتهم التاريخية هي الارتفاع لمستوى هذا التحدي — فالبرجوازية قد فشِلت وأفلست والظروف الموضوعية قد نضِجت لبروز قوة اجتماعية عليها أن ''تبتدع التنظيم الحديث التقدمي الملائم للحركة الجماهيرية السودانية وأن تضع منهاجا يلبي رغبات الشعب السوداني الجامحة في الديمقراطية السياسية والاقتصادية.''(47)

لا شك أن القيادة الجديدة الشابة (لحستو) قد امتلأت بهذه ''الرغبات الجامحة'' وهي تدير ظهرها لخط زين العابدين واعتداله وتوسطه وحرصه على السرية فأكدّت على الوجود المستقلّ والفاعل للحزب، وعلى استبدال حذر السرية والتخفّي بأسلوب المواجهة والمصادمة ووضع الحزب في طليعة الكفاح الحازم والصارخ من أجل الاستقلال، وعلى العمل بمنأى عن مؤتمر الخريجين والحركة الاتحادية وعلى التركيز على القوى الاجتماعية الجديدة من عمال ومزارعين منظّمين وطلاب وموظفين.(48)

وتحت قيادة عبد الرازق حرصت (حستو) على تكثيف حضورها

---

46. عبد الخالق محجوب، **لمحات**، ص 13.

47. المصدر السابق، ص 23.

48.

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – III", *Middle Eastern Studies*, vol. 33, no. 1 (January 1997), pp. 129.

في الفضاء العام وإيصال رسالتها وصوتها لأوسع قطاع من المواطنين وكانت وسيلتها الأساسية والفعّالة في ذلك هي المنشور السياسي. وهكذا فإن الحركة وزّعت مثلا "اثني عشر منشورا عن قضايا هامة في الفترة ما بين سبتمبر 1947 ونوفمبر 1948 — أي بمتوسط منشور في الشهر."[49] وفي عام 1948 ألقى الشيوعيون بثقلهم مشاركين في المظاهرات ضد الجمعية التشريعية والتي جذبت مختلف القطاعات الجماهيرية.[50] وكانت مظاهرة عطبرة في نوفمبر من أقوى المظاهرات واستخدمت فيها الشرطة الرصاص مما أدّى لمقتل خمسة متظاهرين بينهم ثلاثة عمال من أعضاء (حستو).[51] وفي ديسمبر قاد عبد الرازق مظاهرة أم درمان الشهيرة ضد الجمعية.[52] وفي تقييمه لأحداث الجمعية التشريعية فيما بعد لم يركّز عبد الخالق على الدور القيادي الذي لعبه الشيوعيون في العمل التحريضي والمظاهرات فحسب وإنما أيضا على طبيعة هذا الدور باعتباره الدور المبادر في إطلاق المعارضة ضد الجمعية والدور المبادر أصلا بإنشاء

---

49. المصدر السابق، ص 132.

50. صدر قانون المجلس التنفيذي والجمعية التشريعية في يونيو 1948 بهدف إعداد السودانيين للحكم الذاتي. حول التطورات التي فرضت إصدار هذا القانون وما راهنت عليه الإدارة البريطانية انظر Peter Woodward, *Condominium and Sudanese Nationalism* (London: Rex Collings, 1979), pp. 75–95.

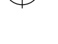
حول موقف مختلف القوى السودانية من الجمعية التشريعية انظر فيصل عبد الرحمن علي طه، **الحركة السياسية السودانية**، ص 377–388.

51. القدال، **معالم**، ص 50.

52. El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years –I", p. 37, n. 12.

جبهـة الكفـاح التـي كانـت الأداة التنظيميـة للتحـرّك الشـعبي. ويضـع عبـد الخالـق هـذه الأحـداث في سـياق إطـار أوسـع عندمـا يكتـب "إن تزايـد نضـال الطبقـة العاملـة السـودانية خـلال عـام 48 واتسـاع حركـة الإضرابـات التـي بلغـت مـدى بعيـدا دعمـت مـن الحركـة الجماهيريـة جعـل عـام 1948 عـام تحـول في الحركـة الوطنيـة السـودانية ووضـع الأسـاس لاسـتقلال البـلاد فيـما بعـد."[53] ولقـد كانـت هـذه القـراءة منسـجمة مـع موقـف التيـار الثـوري الـذي رأى أن الشـيوعيين عـلى المسـتوى السـياسي هـم القـادة المؤهلـون (بحكـم الرؤيـة والمنهـج) لقيـادة الكفـاح ضـد الاسـتعمار نحـو اسـتقلال لا تنفصـل فيـه الحريـة السياسـية عـن محتواهـا الاجتماعـي، ورأى أن الطبقـة العاملـة هـي الطبقـة المؤهلـة لقيـادة مجمـوع المجتمـع (بحكـم قدرهـا التاريخـي).

وفي الحـماس اللاهـب لأحـداث عـام 1948 وغليانهـا وصلـت ثقـة قيـادة (حسـتو) بنفسـها حـدّ اعتبـار جبهـة الكفـاح تكوينـا مـن الممكـن أن يغـدو بديـلا لمؤتمـر الخريجـين. لم يحـدث ذلـك، بـل وبـدأ المـدّ الثـوري منـذ أواسـط عـام 1949 في الانحسـار. وعندهـا أدركـت قيـادة (حسـتو) مـا كان يدركـه زيـن العابديـن مـن أن تقديرهـا لـوزن حركتهـا وتأثيرهـا لا يعكـس حقائـق الواقـع وأنـه لا منـاص مـن التعـاون مـع الأحـزاب البرجوازيـة.[54]




---

53. عبد الخالق محجوب، **لمحات**، ص 30.

54. قـال عبـد الرحيـم أحمـد، أحـد قـادة (حسـتو)، أنهـم أكّـدوا في البرنامـج الـذي رفعـوه للأشـقاء في عـام 1948 عـلى ضرورة حمايـة مصالـح البرجوازيـة الوطنيـة بإجـراءات مثـل تشـجيع الصناعـات المحليـة وتنميتهـا ومقاطعـة السـلع البريطانيـة ودخـول الرأسـماليين الوطنيـين مجال صناعـة النسـيج مـع إيقـاف تصديـر القطـن الخـام وإلغـاء احتـكار الدولـة لاسـتيراد السـكر وفتـح بـاب الاسـتيراد للتجـار السـودانيين. انظـر El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – III", p. 136.



كان واقعُ الانحسار هذا والتقارب مع الاتحاديين الذي شرع عبد الرازق في إحيائه هو الظرف الذي أتاح لعبد الخالق التحرّك ضده وإزاحته في بداية عام 1949. وعَكْس الخلاف مع زين العابدين وجيل الثوريين الذي كان على مستوى معين خلافا حول أساليب جيلين مختلفين في خبراتهما فإن الخلاف بين عبد الخالق وعبد الرازق كان خلافا بين شخصين ينتميان لنفس الجيل (كلاهما كان في بداية العشرينات). ورغم أن كليهما كان ذا نزعة ثورية إلا أن تجربة عبد الرازق العملية عجمت عوده وجعلته أقدر على الأخذ والعطاء وعلى التنازل انتظارا للحظة ارتفاع المد. أما عبد الخالق فكان أقرب لأفق "النظرية" وأقرب للحرفية في هذه الفترة. ويكشف هذا الخلاف المبكّر عن نزعة قوية لدى عبد الخالق للتشنيع والانتقاص من معارضيه. فرغم ما تحقّق في فترة عبد الرازق من إنجاز فإن اختلاف عبد الخالق مع رؤيته لمستقبل الحركة جعله يلقي بإنجازاته عرض البحر وأصبح حريصا، وهو يشكّل ذاكرة الحزب، على قرن اسم رفيقَه في الكفاح كلما ذكره بصفة "الانتهازي" (مثلما كان لينين مثلا يقرن اسم كاوتسكي بصفة "المرتد").[55]




ومثلما أن عبد الرازق انتقل إلى موقع على يسار زين العابدين

---

55. كان المؤرخ محمد سعيد القدال أكثر اعتدالا وإنصافا في الكلام عن فترة عبد الرازق فكتب: "ورغم قصر الفترة التي قضاها عوض عبد الرازق في قيادة الحزب، إلا أنها كانت فترة لها دورها. ولكن أغفل ذلك الدور تماما، مثلما أغفلت الكتابات السوفيتية دور تروتسكي في الثورة البلشفية وقد كان أحد نجومها الساطعة ... كما لم يخل الصراع من مرارات نفثتها روح الشباب، فقد كانت كل قيادات الحزب في العشرين من عمرهم. فكان الاختلاف في الرؤى يعني مروقا وخيانة وهلمجرا للسفينة وهي تصارع الأنواء، وهو قطعا ليس كذلك."، **معالم**، ص 57.

بعـد إزاحتـه فـإن عبـد الخالـق وضـع نفسـه عـلى يسـار عبـد الـرازق. وكان الإعـلان الدرامـي عـن هـذا التحـرك هـو إسـقاط قنـاع (حسـتو) وإعـلان طبيعتهـا الشـيوعية في بياناتهـا الموجهـة للجماهـير.[56] ووجـدت (حسـتو) في جريـدة **الصراحـة** منـبرا اسـتطاعت عـبره طـرح أفكارهـا ومواقفهـا، وفتحتـه أيضـا للشـيوعيين المصريـين في سـعيها لدعـم شـعار الكفـاح المشـترك. ولقـد شـنّت الحركـة عـلى صفحـات **الصراحـة** ولأول مـرة هجومـا عـلى عبـد الرحمـن المهـدي وعـلي الميرغنـي كممثلـين لبنيـة اقتصاديـة إقطاعيـة تسـتغل المزارعـين.[57] وسـارت قيـادة عبـد الخالـق عـلى نفـس هـذا النهـج في الهجـوم الحـادّ عـلى حـزب الأمـة والاتحاديـين.

واهتمـت القيـادة الجديـدة بتكثيـف نشـاطها وسـط القـوى الحديثـة مـن طـلاب وعـمال ومزارعـين. وكان عـام 1950 عـام إنجـاز كبـير وسـط الحركـة النقابيـة إذ تكـوّن في ديسـمبر الاتحـاد العـام لنقابـات العـمال "وأصبـح محمـد السـيد سـلّام رئيسـا لـه والشـفيع أحمـد الشـيخ سـكرتيره وبقـي يقـوده حتـى عـام 1971."[58] وفي مؤتمـره الثـاني طـرح الاتحـاد مسـألة الجـلاء وتقريـر المصـير وأعقـب ذلـك تكويـن الجبهـة المتحـدة لتحريـر السـودان والتـي شـارك فيهـا "الاتحاديـون والمزارعـون




---

56. أنهـى عبـد الـرازق تكتّـم زيـن العابديـن بـأن أعلـن عـن الطبيعـة الاشـتراكية للحركـة ودفـع عبـد الخالـق بالإعـلان لنهايتـه المصادِمـة. وحسـب تقاريـر الأمـن فقـد وُجـدت منشـورات في أغسـطس 1949 في أم درمـان تخاطـب المواطنـين وتقـول لهـم إن خلاصهـم في الشـيوعية وتختتمهـا عبـارات "عـاش كفـاح الطلبـة، عـاش كفـاح المزارعـين، عـاش كفـاح العـمال، عـاش كفـاح الشـيوعيين."

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – III", p. 139.

57. المصدر السابق، ص 139.

58. القدال، **معالم**، ص 60.



وحستو واتحاد كلية الخرطوم الجامعية.''[59] وهكذا أصبح الاتحاد قوة سياسية ومطلبية ذات تأثير أقلق السلطات.

وفي يوليو 1950 أقدمت (حستو) على خطوة غير مسبوقة إذ أنشأت فرعا لأنصار السلام، مما عزّز قلق السلطات بصلات الحركة بالشيوعية العالمية.[60] وفي الغالب أن هذه كانت قاصمة الظهر التي جعلت حكومة السودان تتحرك وتصدر قرارا بحظر المنظمات الشيوعية.

وكانت (حستو) قد عقدت مؤتمرها الأول في أكتوبر 1950 وأرست تقليدا جديدا هو تقليد انتخاب اللجنة المركزية بدلا من تصعيد عضويتها.[61] إلا أن الخلاف الداخلي بين عبد الخالق وعبد الرازق تجدّد وخاصة أن الجناح القديم رأى في سياسات ونهج القيادة الجديدة اتجاها مغامرا يعرّض الحركة لمخاطر غير مبرّرة.




وفي أكتوبر 1952 طرح عبد الرازق رؤيته لمستقبل (حستو) في تقرير قدّمه بصفته كسكرتير تنظيمي وكانت نقاطه الأساسية كالآتي:

---

59. المصدر السابق، ص 62. يقول الدكتور القدال في نقده لتجربة هذه الجبهة أنها لم تعدو أن ''تكون تجميعا للمنظمات التي تدور في فلك حستو وواجهة للعمل العلني، مما جعلها محدودة الفعالية.'' (نفسه، ص 67).

60. يقول الدكتور القدال إن حركة أنصار السلام قد خرجت ''من مآسي الحرب ... وويلاتها، وشاركت فيها قوى اجتماعية من مختلف أنحاء العالم ومختلف الاتجاهات ومن بعض الشخصيات العالمية ذات الوزن الكبير وعلى رأسهم الفيلسوف البريطاني بيرتراند رسل. ولكن احتضان الاتحاد السوفيتي لها واستغلال أهدافها النبيلة في الهجوم على المعسكر الرأسمالي ونواياه العدوانية حوّلها إلى معركة ساخنة في الحرب الباردة بين المعسكرين.'' المصدر السابق، ص 65–66.

61. المصدر السابق، ص 57.





— التأكيد على استقلال الحركة؛

— رفض تحويل (حستو) لحزب شيوعي للاعتبارات التالية:

– الطبقة العاملة في السودان طبقة وليدة وضعيفة وثانوية؛

– طبقة المزارعين لا يزال إنتاجها في مستوى زراعة الكفاف؛

– الماركسية – اللينينية صعبة الهضم حتى لشريحة المتعلمين؛[62]

— إنشاء حزب شيوعي في ظل هذه المعطيات يُعدّ عملا سطحيا يساريا طفوليا؛

— التعجّل سيفقد (حستو) مواقعها الطليعية وخاصة أنها غرست أقدامها عميقا في المجتمع واجتذبت العناصر المستنيرة؛

— التأكيد على ضرورة نشر الثقافة الديمقراطية؛

— التأكيد على عدم اقتصار علاقات (حستو) على الحزب الشيوعي السوفيتي والبلدان الاشتراكية وضرورة انفتاحها لتشمل الحركات والأحزاب اليسارية والديمقراطية في العالم العربي وأفريقيا وآسيا وأوربا.[63]





---

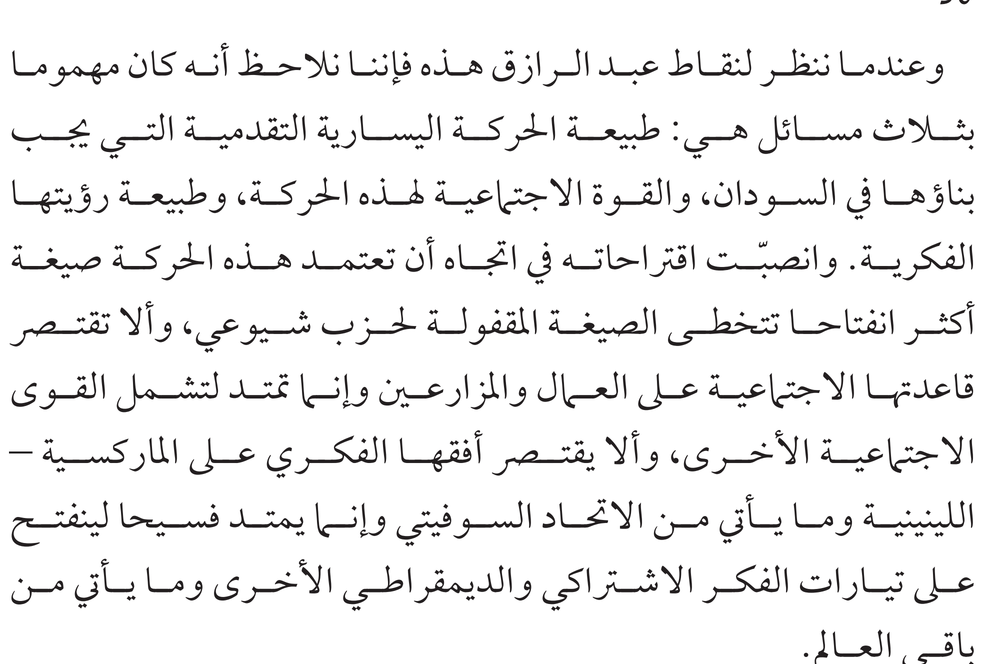
62. هذه الملاحظة كانت تنطبق حتى على الكثيرين من جيل الرواد الذين يقول الدكتور القدال عن معرفتهم بالماركسية: "ورغم أن أولئك الرواد كانوا يدّعون الماركسية، إلا أن معرفتهم بها كانت قليلة. فالأدب الماركسي، سواء ما ترجم إلى العربية أو باللغة الإنجليزية، محدود الانتشار في البلاد، اللهم إلا ما كان يتسرّب منه خلسة وتتبادله قلة من الصفوة. وكانت الكتب الماركسية على قلتها يهيمن عليها المنهج الروسي الماركسي، الذي أحالها إلى قوالب صماء ..." المصدر السابق، ص 39.

63. تاج السر عثمان بابو، "من تاريخ الحزب الشيوعي السوداني: الصراع الفكري 1951–1952"، موقع الراكوبة:

http://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-64611.htm

(تمّ الاسترجاع بتاريخ 5 أبريل 2016)





وعندما ننظر لنقاط عبد الرازق هذه فإننا نلاحظ أنه كان مهموما بثلاث مسائل هي: طبيعة الحركة اليسارية التقدمية التي يجب بناؤها في السودان، والقوة الاجتماعية لهذه الحركة، وطبيعة رؤيتها الفكرية. وانصبّت اقتراحاته في اتجاه أن تعتمد هذه الحركة صيغة أكثر انفتاحا تتخطى الصيغة المقفولة لحزب شيوعي، وألا تقتصر قاعدتها الاجتماعية على العمال والمزارعين وإنما تمتد لتشمل القوى الاجتماعية الأخرى، وألا يقتصر أفقها الفكري على الماركسية – اللينينية وما يأتي من الاتحاد السوفيتي وإنما يمتد فسيحا لينفتح على تيارات الفكر الاشتراكي والديمقراطي الأخرى وما يأتي من باقي العالم.

وبالمقابل قدّم عبد الخالق الرؤية التقليدية التي كانت سائدة وسط الأحزاب الشيوعية وقتها والتي كانت تصرّ على قيادة الطبقة العاملة للمجتمع وعلى قيادة الحزب الشيوعي بمرجعيته الماركسية – اللينينية للطبقة العاملة وللمجتمع.



انتصر خط عبد الخالق وخسرت رؤية عبد الرازق معركتها. وحسب أحد المصادر نال خط عبد الخالق أربعة عشر صوتا مقابل أحد عشر صوتا لخط عبد الرازق.[64] وإن كان هذا صحيحا فإن هذا الفارق الضئيل في الأصوات أوصل شبابا في العشرينات من أعمارهم في اجتماع في أوائل الخمسينيات لقرار جسيم شكّل مستقبل اليسار السوداني وقدره حتى يومنا هذا وقاد حزبهم لمأساة دموية بعد عقدين من الزمان.

---

64. يثبت الدكتور محمد نوري الأمين هذه المعلومة نقلا عن تقرير بالعربية كتبه على ما يبدو ضابط شرطة بعنوان "كيف دخلت الشيوعية السودان" بتاريخ 20 يناير 1958. والتقرير من الأرشيف الشخصي لسوداني طلب عدم ذكر اسمه.

El-Amin, "The Sudanese Communist Movement, The First Five Years – III", p.145 , n. 42.





حـاول عبـد الـرازق ومجموعتـه إقامـة حركتهـم المسـتقلة إلا أنهـم فشـلوا. ولقـد فشـلوا لأن ميـزان القـوى لم يكـن في صالحهـم. كان خـط عبـد الخالـق يتمتّـع بدفـع عالمـي وإقليمـي إذ أنـه عَكَـس رغبـة الاتحـاد السـوفيتي وأمميتـه الثالثـة التـي عمِلـت عـلى فـرض صيغـة الأحـزاب الشـيوعية المهتديـة بهـدي الماركسـية – اللينينيـة عـلى مسـتوى كل العـالم، عـلاوة عـلى التماهـي مـع رغبـات وخطـط الحركـة الشـيوعية المصريـة. وهكـذا فـإن (حسـتو) حسـب صيغـة عبـد الخالـق لم تكـن مجـرد جماعـة سـودانية داخليـة وإنـما كانـت أيضـا جـزءا مـن جسـم حركـة عالميـة تدعمهـا وتسـتمد منهـا ركائـز خطابهـا والكثـير مـن ألقهـا وجاذبيتهـا. وانضـاف لعامـل السـند الخارجـي الموضوعـي هـذا عامـل ذاتي هـام مـا كان مـن الممكـن أن يتحقّـق انتصـار وتكريـس خـط عبـد الخالـق النهائـي بدونـه. لقـد اسـتطاع الحـزب الشـيوعي أن يجـذب بعضـا مـن خـيرة أبنـاء وبنـات السـودان الذيـن امتـلأوا بأنبـل الأحـلام وأرفعهـا لحـاضر وطنهـم ومسـتقبله والذيـن كانـوا – ولا يزالـون – عـلى اسـتعداد لتقديـم كل التضحيـات لمجتمعهـم. واسـتطاع الحـزب الشـيوعي أن يجـذب لآلتـه الداخليـة بعضـا مـن أصلـب العنـاصر الذيـن امتهنـوا قضيـة الثـورة وأصبحـت عملهـم وشـغلهم الشـاغل.[65]




5

وبوقـوع انقـلاب الضبـاط الأحـرار في مـصر بقيـادة جمـال عبـد النـاصر دخـل السـودان مرحلـة جديـدة في كفاحـه مـن أجـل الاسـتقلال. ولقـد تميّـز موقـف (حسـتو) مـن النظـام المـصري في هـذه المرحلـة بتبعيتـه لموقـف الحركـة الشـيوعية المصريـة، وأدّى تصلّبهـا المنبنـي عـلى

---

65. انظـر مثـلا السـيرة الملهمـة للمتفـرغ الحـزبي الجـزولي سـعيد التـي جمعهـا وأعدّهـا الشـفيع الجـزولي: **المناضـل الجـزولي سـعيد: رمـز الحيـاة والأمـل، سـيرة عامـل سـوداني**، الخرطـوم: دون نـاشر، 2013. وهنـاك أيضـا تاريـخ متفرغـين شـيوعيين أسـقطهم الحـزب الشـيوعي مـن ذاكرتـه مثـل يوسـف عبـد المجيـد الـذي اختلـف مـع الخـط السـائد.

الشعارات والمزايدة السياسية لخطأ كبير في موقفها من اتفاقية الحكم الذاتي[66] التي حاولت أن تعبىء الحركة العمالية والطلابية ضدها. إلا أن الإجماع الوطني كان مؤيدا للاتفاقية مما اضطر (حستو) لنقد موقفها والتنازل عنه.[67]

وكان أهم تطور في فترة ما بعد توقيع اتفاقية الحكم الذاتي هو تكوين الجبهة المعادية للاستعمار لخوض انتخابات عام 1953. ولقد كانت هذه الصيغة امتدادا لصيغتي جبهة الكفاح والجبهة المتحدة لتحرير السودان ولم تختلف عنهما في أنها كانت تنظيم واجهة (وصفه عبد الخالق بأنه حزب ديمقراطي "يتصل بالجماهير في أكثر من أفق ويحتلّ فيه الشيوعيون مركز الصدارة."[68]) ومكّنت الجبهةُ المعادية للاستعمار الشيوعيين من الوصول لأماكن في ريف السودان وقراه النائية ما كان من الممكن أن يصلوا إليها لو طرحوا أنفسهم كحزب شيوعي. ورغم أن الجبهة لم تفز في دائرة إقليمية إلا أن مرشحها حسن الطاهر زروق فاز بمقعد من مقاعد الخريجين. وكان أهم إنجاز للجبهة هو نجاح حملتها البرلمانية والشعبية لإلغاء قانون النشاط الهدّام الذي كان يستهدف نشاط الشيوعيين والنشاط النقابي. وعندما انفجرت حرب الجنوب عشية الاستقلال في أغسطس 1955 دعا الشيوعيون لتطبيق الحكم الذاتي الإقليمي،[69] وكان موقفهم




---

66. تمّ توقيع اتفاقية الحكم الذاتي في فبراير 1953 بين بريطانيا ومصر بعد أن قامت مصر بالتشاور والاتفاق مع الأحزاب السودانية (باستثناء الجنوبيين والحزب الشيوعي). ولقد نصّت الاتفاقية على منح السودان حق تقرير المصير بعد فترة حكم ذاتي لا تتجاوز ثلاث سنوات. حول خلفية الاتفاقية وبنودها انظر القدال، **تاريخ السودان الحديث 1820–1955**، ص 362–363.

67. عبد الخالق محجوب، **لمحات**، ص 45.

68. المصدر السابق، ص 55.

69. الحزب الشيوعي السوداني، **الحزب الشيوعي السوداني وقضية الجنوب**



هـذا متقدمـا عـلى مواقـف غالـب الأحـزاب الشـمالية إلا أنـه كان دون مطلـب الأحـزاب الجنوبيـة التـي دعـت لتطبيـق نظـام فـدرالي.[70] وقـد حمـل الموقـف الجنـوبي دائـما في أحشـائه إمكانيـة أخـرى هـي المطالبـة بتقريـر المصـير المفتـوح عـلى الاسـتقلال في حالـة فشـل العيـش في بلـد متحـد، وهـي إمكانيـة ظـلّ الحـزب الشـيوعي يقاومهـا باسـتمرار إذ ظـلّ رافضـا لفكـرة تقريـر المصـير.[71]

(من منشورات الحزب الشيوعي، الطبعة الثانية، أبريل 1996)، ص 12.

70. حـول مطلـب الفدراليـة والـصراع حولـه انظـر عبـد الماجـد بـوب، **جـدل الوحـدة والانفصـال** (الخرطـوم: مطبعـة جامعـة الخرطـوم، 2009)، ص 64–65. كان الحـزب الجمهـوري بزعامـة محمـود محمـد طـه هـو الحـزب الشـمالي الوحيـد الـذي سـاند فكـرة الفدراليـة ودعـا في مقترحـه للدسـتور الـذي أصـدره عشـية الاسـتقلال لقيـام "حكومـة جمهوريـة فدراليـة ديمقراطيـة اشـتراكية." إلا أن مـشروع طـه كان أيضـا مشروعـا لإقامـة دولـة دينيـة ترفـض العلمانيـة ولا يمكـن تصـوّر حلّـه النهائـي لمشـكلة الجنـوب خـارج "مركزيتـه الإسـلامية" التـي تؤمـن بـأن حـلّ مشـاكل البشريـة لا يمكـن أن يتحقـق خـارج الإسـلام.




71. في خطـاب لجوزيـف قرنـق، الزعيـم الشـيوعي، في عـام 1970 عندمـا كان وزيـرا لشـئون الجنـوب قـال "... لمـاذا الحكـم الـذاتي الإقليمـي؟ لمـاذا الحـق لتطويـر الثقافـات والتقاليـد؟ لابـد مـن القـول مـرة أخـرى إنـه لا يوجـد في الواقـع كِيـان قومـي في الجنـوب، ولهـذا السـبب وحـده فـإن مبـدأ تقريـر المصـير لا يمكـن أن ينطبـق. ولكـن توجـد مجموعـات قوميـة في الجنـوب تسـكن كل واحـدة منهـا في منطقـة محـدّدة وتتحـدّث لغـة محـدّدة ولهـا عاداتهـا وتقاليدهـا المتميـزة ..."
Joseph Garang, "On Economics and Regional Autonomy," *Review of African Political Economy*, vol. 26 (1983), p. 86. [ترجمتنا]

وقـد ناقـش عبـد الخالـق مسـألة تقريـر المصـير مـن زاويـة مختلفـة في وثيقـة



وعقب الاستقلال في مطلع يناير 1956 لم تُضِع (حستو) أي زمن فعقدت في فبراير مؤتمرها الثالث الذي حضره سبعة وثلاثون مندوبا. وُلد الحزب الشيوعي السوداني ميلادا رسميا معلنا في هذا المؤتمر وطرح وثيقته "سبيل السودان نحو تعزيز الاستقلال والديمقراطية والسلم" التي قدّمت برنامجه لمهام مرحلة ما بعد الاستقلال ورفع فيه شعاره الطموح "اجعلوا من الحزب قوة اجتماعية كبرى". ورغم أن قيادة الحزب قررت القفز في الحال من صيغة الجبهة المعادية للاستعمار لأعلى صيغة جذرية مطروحة في العالم وهي صيغة الحزب الشيوعي إلا أنها كانت متواضعة في وصف طبيعة المرحلة التي يمر بها السودان في تطوره وطبيعة المهام المطروحة. فالمرحلة مرحلة ثورة وطنية ديمقراطية والمهام تتعلق بإجراءات للسير في طريق تطور غير رأسمالي مع التمسك بالديمقراطية.[72]




إلا أن المؤتمر واجه ومنذ البداية مشكلة عويصة كان لابد له من إيجاد مخرج نظري لها: فالقرار بأن يقوم حزب شيوعي في السودان بعد استقلاله مباشرة يعني أن الطبقة العاملة السودانية هي التي ستقود البلاد لتحقيق أهداف مرحلة ما بعد الاستقلال بينما أن الطبقة العاملة السودانية في واقع الحال غير مؤهلة للقيام بهذا الدور التاريخي، وحزبها نفسه تقوده عناصر يغلب عليها الانتماء

حول البرنامج حيث عدّل الموقف الذي أعلنه قرنق وقَبِل بمبدأ تقرير المصير "للقوميات" وخاصة الجنوب إلا أنه أجّل ممارسة هذا الحق لما بعد تطبيق الحكم الذاتي وعندما يدخل السودان مرحلة البناء الاشتراكي، وهو متأكد أن "القوميات" والجنوب ستقرر مصيرها حينها "في إطار الاشتراكية والدولة السودانية الاشتراكية." الخرطوم: دار عزة، ص 74.

72. عبد الخالق محجوب، **لمحات**، ص 62–63.



الطبقـي البرجـوازي. كانـت هـذه هـي المشـكلة التـي أثارهـا عبـد الـرازق بثاقـب نظـره عندمـا رأى أن صيغـة الحـزب الشـيوعي صيغـة متعجّلـة. وكان المخـرج هـو نظريـة مـا عُـرف في أدبيـات الحـزب الشـيوعي بـ ''تأهيـل الطبقـة العاملـة''، أي افـتراض نقطـة زمانيـة مسـتقبلية ينقلب فيهـا الميـزان الطبقـي انقلابـا كيفيـا بعـد عمليـة تراكـم كمّـي عـبّر عنه عبـد الخالـق بعبـارة: ''سـير الطبقـة العاملـة بالتدريـج لاحتـلال مركـز القيـادة.''[73] وهكـذا عـاد عبـد الخالـق واسـتعار مفهـوم ''التـدرّج'' مـن قامـوس زيـن العابديـن، رغـم أن الأخـير كان يطـرح المفهـوم وهـو يتحـدث عـن أفـق اسـتراتيجي مختلـف. وبتمسّـك عبـد الخالـق ورفاقـه بصيغـة الحـزب الشـيوعي نشـأ ذلـك الوضـع الغريـب الـذي وُلـد فيـه ابـنٌ لأبٍ لا يـزال في طـور جنينـي.




رأى الحـزب الشـيوعي عقـب مؤتمـره الثالـث نفسـه بوصفـه الحـزب الوحيـد الـذي كان يملـك رؤيـة وبرنامجـا لمواجهـة تحديـات مـا بعـد الاسـتقلال وأن ذلـك لا شـك سـيعينه للتحـول لقـوة اجتماعيـة كـبرى. إلا أن نفـوذ الحـزب لم يتعاظـم بـل واجـه انحسـارا في العضويـة يصفـه عبـد الخالـق قائـلا: ''لقـد تسـاقطت نسـبة لا يسـتهان بهـا مـن عضويـة الحـزب في هـذه الفـترة إمـا بـترك صفـوف الحـزب مباشرة أو بالبقـاء فيـه مـن الناحيـة الشـكلية وحدهـا ...''[74] ويفـسّر هـذه الظاهـرة بالرجـوع للأصـل الطبقـي لهـؤلاء الأعضـاء. ولكـن هـذا القالـب النظـري الجاهـز يصطـدم بتعقيـد الواقـع إذ أن الظاهـرة امتـدت للطبقـة العاملـة نفسـها حيـث انحـازت أقسـام منهـا ''للعنـاصر اليمينيـة'' التـي وجـدت لهـا أقدامـا وسـط الحركـة النقابيـة.[75] ومـا يهمـل عبـد الخالـق ذكـره وهـو يتحـدّث عـن هـذا الانحسـار هـو عامـل معارضـة صيغـة الحـزب الشـيوعي، إذ كان هنـاك اتجـاه يـرى ''أن الماركسـية لا

73. المصدر السابق، ص 62.
74. المصدر السابق، ص 64.
75. المصدر السابق، ص 64.



تناسـب ظـروف السـودان.''[76]

وكان هنـاك واقـع مُـرّ آخـر أكـبر مـن واقـع الحزب الشـيوعي ومشـاكله وهـو واقـع التمـزّق والانقسـام والـصراع المحمـوم عـلى أسـلاب دولـة مـا بعـد الاسـتقلال الـذي استحوذ عـلى الأحـزاب الوطنيـة. وممـا يُحمـد لعبـد الخالـق أنـه واجـه الوضـع في ذاك الظـرف بمرونـة وعـاد للتعبـير عـن موقـف زيـن العابديـن وعبـد الـرازق فنـادى في أول ليلـة سياسـية تحدّث فيهـا في عطبرة في مايـو 1956 بتكويـن ''جبهـة وطنية مـن الوطني الاتحـادي والختميـة والجبهـة المعاديـة للاسـتعمار والشـيوعيين والعنـاصر المختلفـة مـن أجل تأمـين الاسـتقلال ومقاومـة الأحـلاف.''[77] وفي يوليو دعـت الجبهـة المعاديـة للاسـتعمار لتكويـن حكومـة قوميـة تشـملها، ممـا عنـى اسـتعدادها للدخـول في تكويـن يضـمّ اليمـين الـذي يمثلـه حـزب الأمـة. وفي انتخابـات 1958 ركّـزت الجبهـة عـلى مـا وصفتـه بوحـدة القـوى الوطنيـة والـذي عنـت بـه وحـدة الوطنـي الاتحـادي وحـزب الشـعب الديمقراطـي في وجـه حـزب الأمـة. إلا أن هـذه الوحـدة لم تتحقـق وفـاز حـزب الأمـة. وعندمـا توحّـدت هـذه القـوى وأجمعـت أمرهـا عـلى إسـقاط الحكومـة فاجأهـم حـزب الأمـة بتسـليم السـلطة في 17 نوفمـبر 1958 لكبـار ضبـاط الجيـش بقيـادة الفريـق إبراهيـم عبـود.



7

ومنــذ أيامــه الأولى تلقّــى نظــام عبــود مباركــة الزعيمــين الطائفيــين عــلي الميرغنــي وعبــد الرحمــن المهــدي. ولقــد ظــل حــزب الشــعب الديمقراطـي، حـزب الختميـة، مؤيـدا للنظـام إلى لحظـة سـقوطه. وسـار الحـزب الوطنـي الاتحـادي أيضـا في طريـق التأييـد. أمـا في حالـة الحـزب الشــيوعي فقــد اجتمــع مكتبــه الســياسي بعــد يــوم مــن الانقــلاب وقـرّر أن ''انقـلاب 17 نوفمـبر انقـلاب رجعـي وأنـه بتلـك الطبيعـة سـينعزل حتـما عـن الشـعب، وأنـه ضعيـف، وأن الواجـب مقاومتـه

76. القدال، **معالم**، ص 89.

77. المصدر السابق، ص 93.



وذلك عن طريق جبهة من القوى الوطنية الديوقراطية داخل الجيش وخارجه."[78] وفي البيان الجماهيري الذي أصدره المكتب السياسي كان هناك حرص على توضيح الفارق الطبقي بين كبار الضباط الذين قاموا بالانقلاب وبين الغالبية الساحقة من الضباط الذين "هم جزء من البرجوازية الصغيرة ... ولهم اتجاهات وطنية ديمقراطية."[79] وللخروج من الأزمة طرح البيان تكوين حكومة "تتألف من القوى الوطنية وضباط الجيش الوطنيين" وخاطب بشكل غير مباشر "القوى الوطنية" في الجيش للتحالف مع الحركة الجماهيرية.[80]




وهكذا ومنذ البيان الأول ضد النظام العسكري نجد أن خطاب الحزب الشيوعي قد دخله عنصر جديد هو الحديث عن شريحة صغار الضباط كفئة "وطنية ديمقراطية" يحقّ لها أن تشارك في الحكومة. ويتضح أن إدانة الحزب الشيوعي للانقلاب لم تكن بالدرجة الأولى من منطلق الدفاع عن الديمقراطية بقدرما كانت بسبب الطبيعة "الرجعية" للانقلابيين أو طبيعة مصالحهم الطبقية. وتحليل الحزب الشيوعي للجيش وشرائحه الطبقية لم يكن انتباها مفاجئا وأنما انبنى على الموقف النظري الذي بدأ السوفيت يطورونه في تقييمهم لما يحدث في العالم النامي الخارج لتوّه من الفترة الاستعمارية. ولقد صنّفت النظرية السوفيتية على ضوء التحليل الطبقي الجنودَ وصغارَ الضباط ضمن فئة من وصفتهم "بالديمقراطيين الثوريين"،[81]

78. الحزب الشيوعي، **ثورة شعب: ست سنوات من النضال ضد الحكم العسكري الرجعي** (الخرطوم: دار الفكر الاشتراكي، 1965)، ص 28.

79. القدال، **معالم**، ص 108.

80. المصدر السابق، ص 109.

81. كانت إحدى مرتكزات هذا الموقف النظري الحجة القائلة إن

وشـمل هـذا التقييـم أنظمـة مثـل النظـام النـاصري.[82]

"النمـط الكلاسـيكي للثـورات ... لا يمكـن حدوثـه في ظـروف العـالم المعـاصر، وفي بلـدان العـالم الثالـث عـلى الأخـص، حيـث تتميـز تلـك البلـدان بميوعـة الخطـوط بـين الطبقـات الاجتماعيـة، بالإضافـة إلى ضعـف التكوينـات العماليـة فيهـا، وكذلـك ضعـف القـوى الديمقراطيـة السـاعية إلى إحـداث تغيـيرات اجتماعيـة راديكاليـة." محمـد محجـوب عثـمان، **الجيـش والسياسـة في السـودان: دراسـة في حركـة 19 يوليـو 1971** (القاهـرة: مركـز الدرسـات السـودانية، 1998)، ص 16.

حـول اتجاهـات النظريـات السـوفيتية عـن العـالم النامـي والاختلافـات بـين العسـكريين والمدنيـين في الحـزب ووزارة الخارجيـة انظـر

Mark N. Katz, *The Third World in Soviet Military Thought* (London and Canberra: Croom Helm, 1982), pp. 123–157.




82. كان عبـد الخالـق عـلى صلـة ودودة بعبـد النـاصر وكان معجبـا بـه وانتقـد الشـيوعيين المصريـين لعجزهـم عـن تقديـر الطبيعـة التقدميـة للنظـام النـاصري. انظـر

Tareq Y. Ismael, *The Sudanese Communist Party: Ideology and Party Politics* (London and New York: Routledge, 2013), pp. 178–179.

ولقـد بلـغ حمـاس الحـزب الشـيوعي لنظـام عبـد النـاصر حـدّ تأييـده في منتصـف السـتينيات لقـرار الشـيوعيين المصريـين بحـلّ "تنظيماتهـم بأمـل تكويـن حـزب طليعـي داخـل الاتحـاد الاشـتراكي العـربي" (الحـزب الشـيوعي السـوداني، سـكرتارية اللجنـة المركزيـة، **19 يوليـو 1971** (مـن منشـورات الحـزب الشـيوعي، ينايـر 1996)، ص 70). وكل هـذه مواقـف انتقدهـا الحـزب الشـيوعي فيـما بعـد واعتبرهـا نتاجـا للتقديـرات المتفائلـة والذاتيـة "السـائدة في الحركـة الشـيوعية العالميـة آنـذاك عـن دور وقـدرات البرجوازيـة الصغـيرة وحركاتهـا وأنظمتهـا، كـما تعـبّر وثائـق اجتـماع الأحـزاب الشـيوعية والعماليـة عـام 1960 وعـام 1969."

كان مـن الطبيعـي أن يرتبـط هـذا التحليـل الطبقـي للمؤسسـة العسكرية بعمـل سياسي وسـط الجيش. ولقـد بـدأ عمـل الشيوعيين السـودانيين في الجيش منـذ عـام 1954،[83] وهـم بذلـك العمـل المبكّر قد نقلـوا في واقـع الأمـر تقليـدا مـن تقاليـد الحركـة الأمّ إذ أن الحركـة المصرية للتحـرر الوطنـي اهتمـت اهتمامـا خاصـا بتأسيس خلايـا في الجيش منـذ الثلاثينيـات عندمـا أصـدرت حكومـة الوفـد قانونـا للجيـش يهـدف لإبعـاد نفـوذ الملـك وتوسـيع قاعـدة الجيـش الاجتماعيـة.[84] ويبـدو أن عمـل الشـيوعيين السـودانيين وسـط الجيش كان مـن النجـاح والـوزن

نفسـه، ص 71). وبلـغ حمـاس الحـزب الشـيوعي للوحـدة بـين مـصر وسـوريا درجـة دعوتـه لوحـدة مماثلـة بـين السـودان ومـصر. انظـر Ismael, *The Sudanese Communist Party*, p. 178.

ويذكـر الصحفـي إدريـس حسـن في مقالتـه "شـاهدتهم يعدمـون عبـد الخالـق محجـوب" والـذي نُـشر في صحيفـة الأيـام في أبريـل 1987 أن رئيـس المحكمـة التـي حاكمـت عبـد الخالـق سـأله عـما إن كان الحـزب الشـيوعي يملـك سـلاحا وردّ عبـد الخالـق "نعـم، وقـد أرسـلها لنـا الرئيـس جمـال عبـد النـاصر عـام 1965 عندمـا تعـرّض الحـزب لهجمـة شرسـة مـن جانـب القـوى الرجعيـة أدت لإخـراج نوابـه مـن الجمعيـة التأسيسـية ..." مقتبـس في حسـن الجـزولي، **عنـف الباديـة: وقائـع الأيـام الأخـيرة في حيـاة عبـد الخالـق محجـوب** (القاهـرة: مـدارك، 2006)، ص 290. وإن كان هـذا صحيحـا فربـما خـاف عبـد النـاصر عـلى الشـيوعيين السـودانيين مصـيرا شـبيها بمصـير الشـيوعيين الإندونيسـيين.

83. محمـد محجـوب عثـمان، **الجيـش والسياسـة في السـودان**، ص 11. يقـول عثـمان إن تنظيـم الضبـاط الشـيوعيين وحلفائهـم قـام عـلى أكتـاف المقـدم بابكـر النـور.

84. حـول عمـل الحركـة المصريـة وسـط العسـكريين ومـا قدمتـه لحركـة الضبـاط الأحـرار انظـر السـعيد، **تاريـخ المنظـمات اليسـارية المصريـة 1940 – 1950**، ص 234–246.




مما جعلهم يؤيدون ويشاركون في ''محاولات الانقلاب الأربعة التي قام بها ضباط وصف وجنود وطنيون لإسقاط الفريق عبود في أول مارس 1959 وفي 22 مايو 1959 ونوفمبر 1959.''[85] وقادت هذه المحاولات، رغم فشلها، لتغيير عميق في الرؤية الاستراتيجية لعبد الخالق وقيادة الحزب إذ أن القوى الثورية أصبحت لديها وسيلة فعّالة إضافية هي الجيش، علاوة على السبيل التقليدي الذي تتحدّث عنه أدبيات الحزب دائما أي سبيل استنهاض الجماهير وتعبئتها وتنظيمها وإطلاق طاقاتها الثورية لدحر علاقات الانتاج القديمة وتحقيق التطور غير الرأسمالي.

كان بيان المكتب السياسي الذي أدان فيه الانقلاب وعارضه بمثابة الطلقة الأولى في المواجهة الطويلة بين الشيوعيين والنظام. وكانت تعبئة الشيوعيين وسط العمال والمزارعين والطلاب والمهنيين، أو




85. الحزب الشيوعي السوداني، سكرتارية اللجنة المركزية، 19 **يوليو 1971**، ص 3. ولا شك أن هذه صراحة تُحمد لسكرتارية اللجنة المركزية وتؤكد جدية الحزب الشيوعي في مراجعة وانتقاد نزعته الانقلابية. إلا أن محمد محجوب عثمان يعارض هذا الإقرار ويقول إن ''هذا قول يحتاج إلى دليل أو إثبات، لأن هذا لم يرد في أي وثيقة صدرت عن الحزب، أو حتى في خطاب داخلي يتم تعميمه على العضوية.'' (**الجيش والسياسة في السودان**، ص 21). وهذا اعتراض غير وجيه لأن الانقلابات العسكرية بطبيعتها عمليات تآمرية سرية وليست مما يُعلن في الوثائق أو التعميمات الداخلية. ماذا إذن عن المحاولة الانقلابية التي شارك هو نفسه فيها وهي محاولة نوفمبر 1959 التي قادها البكباشي علي حامد؟ كعضو ملتزم في الحزب الشيوعي اتصل بالقيادة وأكّد له عضوان من اللجنة المركزية أن اللجنة المركزية قد وافقت على مشاركته. ويقول إنه تبيّن له فيما بعد أن اللجنة المركزية لم يكن لها علم بالأمر وأن ما قاله له العضوان لم يكن سوى ''موقف تآمري'' (نفسه، ص 27).

مجموع ما أصبح يُعرف بالقوى الحديثة، هي التحدي الأكبر الذي واجهه النظام في الشمال، بينما كان يواجه في نفس الوقت التحدي الكبير للحرب الأهلية في الجنوب. سنقتصر في هذه المعالجة على الإشارة في الفقرة التالية للحركة العمالية ومقاومتها للنظام والتي لعب الحزب الشيوعي فيها دورا بارزا.

استهدف النظام منذ أيامه الأولى العمال ونقاباتهم وخاصة عمال هيئة السكة حديد ونقابتهم، بالإضافة لاتحاد نقابات العمال بوصفه الوعاء الجامع لعدد كبير من النقابات والمنسّق للعمل بينها. كانت هذه التكوينات الحديثة والحركية أخطر من الأحزاب السياسية لاعتمادها على الحجم العددي لأعضائها المتجمعين كقوة عمل في مكان واحد والمتضامنين داخليا فيما بينهم وخارجيا مع تكوينات أخرى شبيهة. وهكذا وبعد أسبوعين من الانقلاب صدرت قرارات بحلّ جميع النقابات وحلّ اتحاد نقابات السودان. وأعقبت ذلك اعتقالات للبعض من العاملين في اتحاد نقابات العمال وعلى رأسهم الشفيع أحمد الشيخ، السكرتير العام للاتحاد. ولقد قدموا لمحكمة عسكرية أدانت أبرزهم وحكمت عليهم بالسجن لمدد متفاوتة. وتواصل نضال العمال (وكان من أبرز وقفاتهم إضراب عمال السكة حديد الجزئي في نوفمبر 1959) وسانده التضامن العالمي مما اضطر النظام للتراجع في عام 1960 عندما سنّ قانونا جديدا سمح بتكوين النقابات ولكن بشروط قُصد منها شلّ الحركة النقابية وتقييد فاعليتها.[86] وفي أغسطس 1963 سمح النظام




86. حول هذا القانون وسماته الأساسية انظر صديق الزيلعي، "ثورة أكتوبر والنقلة النوعية في الحركة العمالية السودانية" في حيدر إبرهيم علي وعبد السلام نور الدين ومحمد محمود وعبد الوهاب هِمّت (محررون)، **خمسون عاما على ثورة أكتوبر السودانية 1964–2014: نهوض السودان الباكر** (القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 2014)، ص 153–155.



بعقد مؤتمر للعمال على أمل التحكم في الحركة العمالية وتدجينها، إلا أن الأمور سارت على غير ما يشتهي النظام وخرج المؤتمر بقرارات تطالب بعودة نقابة السكة حديد وإلغاء قانون العمل والعمال لعام 1960 وقيام اتحاد عام لعمال السودان.[87]

وفي أكتوبر 1960 ولأول مرة منذ انقلاب عبود قامت مظاهرات في مختلف مدن السودان تندّد باتفاق النظام مع النظام المصري بشأن السد العالي وترحيل أهالي حلفا، ولقد كان ذلك التطور وموجة السخط التي لازمته عاملا من العوامل التي دفعت بعض الأحزاب لإقامة جبهة المعارضة التي شارك فيها حزب الأمة والحزب الوطني الاتحادي والحزب الشيوعي. وفي نهاية نوفمبر 1960 رفعت جبهة المعارضة مذكرة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة تطالب فيها أن يتفرّغ الجيش لمهمته الأساسية وهي حماية البلاد وأن تتولى الحكم هيئة قومية انتقالية تقوم بوضع قانون انتخابات عادل وأن تُرفع حالة الطوارىء وتُكفل حرية المواطنين.[88]




واستمرّت اجتماعات جبهة المعارضة واستمرت مخاطباتها لمجلس النظام. وفي يوليو 1961 أقدم النظام على اعتقال اثنَي عشر من قادة المعارضة بينهم عبد الخالق وتم نفيهم لجوبا. وفي يناير 1962 دخل القادة في إضراب مفتوح حتى يتم إطلاق سراحهم. وانطلقت حملة تضامن محلية وعالمية لعب فيها الحزب الشيوعي دورا رائدا أجبرت النظام على الإفراج عنهم في الحال.

وعلاوة على المشاركة السياسية في جبهة المعارضة فإن الحزب الشيوعي كان يطرح على المستوى النظري تصورا أكثر جذرية عبّر عنه البيان الذي أصدره المكتب السياسي في أغسطس 1961 بعنوان ''حول الموقف السياسي والإضراب السياسي العام''. وفي هذا

87. لتفاصيل أوفي عن المؤتمر انظر الحزب الشيوعي، **ثورة شعب**، ص 121–124.

88. الحزب الشيوعي، **ثورة شعب**، ص 236.



البيـان طُرحـت فكـرة الإضراب السـياسي العـام لإسـقاط النظـام وحـدّد البيـان القـوى التـي سـتنفّذه وهـي "القـوى الثوريـة" التـي تتألـف مـن الطبقـة العاملـة والمزارعـين والطلبـة والبرجوازيـة الوطنيـة. إلا أن سـمة "الثوريـة" تتطلّـب فـرزا وتحديـدا إضافيـا، وهكـذا فـإن تصـور البيـان هـو أن تشـترط الطبقـة العاملـة اسـتبعاد "العنـاصر اليمينيـة".[89] وعلاوة عـلى تقديمـه لتصـور عـن القـوى الاجتماعيـة لـلإضراب السـياسي فـإن البيـان يقـدّم تصـورا ضمنيـا لفضائـه عندمـا يقـول: "إن تحقيـق تلاحـم صفـوف العـمال والمزارعـين والطلبـة وجماهـير المـدن يشـكّل مركـز الثقـل في نشـاطنا التنظيمـي والسـياسي لنجـاح الإضراب العـام ... "[90] وهكـذا فـإن الحديـث عـن إضراب عـام أو إضراب سـياسي هـو بالدرجـة الأولى حديـث عـن حركـة حضريـة. ومـا نلاحظـه أنـه وحتـى في حالـة هـذه القـوى الحضريـة فـإن تأثـير إضرابهـا يتبايـن حسـب قربهـا مـن العمليـة الإنتاجيـة إذ أن إضراب العـمال أو موظفـي الدولـة أكثـر فعاليـة مـن إضراب الطـلاب مثـلا.




ورغـم طـرح الحـزب الشـيوعي المبـادر لصيغـة الإضراب السـياسي العـام التـي أثبتـت فعاليتهـا ومضاءهـا عندمـا حانـت لحظتهـا التاريخيـة، ورغـم معارضتـه القويـة ونضالـه الجـريء ضـد النظـام العسـكري إلا أنه خطـا خطـوة عـام 1963 لا تشـبه خطابـه ومواقفـه عندمـا قـرر المشـاركة في انتخابـات المجلـس المركـزي التـي قاطعتهـا كل أحـزاب المعارضـة. وكان الحـزب الشـيوعي قـد أصـدر في نوفمـبر 1962 مطبوعـة بعنـوان "الكتـاب الأسـود بمناسـبة الذكـرى الرابعـة للانقـلاب العسـكري"[91]

89. المصدر السابق، ص 424–425.

90. المصدر السابق، ص 427.

91. كثـيرا مـا تسـتخدم أدبيـات الحـزب الشـيوعي السـوداني تعابـير تحمـل الإيحـاءات السـالبة للـون الأسـود، وهـي في ذلـك لا تختلـف عـن غالبيـة الكتابـات العربيـة. إن التوقـع أن يعكـس التقدميـون وعيـا مختلفـا وحساسـية أرقـى تجعلهـم يصوغـون لغتهـم بتعابـير متحـرّرة مـن

أعلـن فيهـا أن ''المجلـس المركـزي جـاء أبعـد مـا يكـون عـن تحقيـق الديمقراطيـة بـل هـو نكسـة خطـيرة إذا مـا قـورن بالمؤسسـات التـي حققهـا الشـعب قبـل انقـلاب 17 نوفمـبر 1958.''[92] وفي ينايـر 1963 قـررت اللجنـة المركزيـة دخـول الحـزب الشـيوعي في انتخابـات المجلـس المركـزي وبـرّرت ذلـك بقولهـا إنهـا رغـم علمهـا بالطبيعـة الرجعيـة للمجلـس إلا أنهـا تريـد أن تفضحـه مـن الداخـل وتسـخره ''كمنـبر للدفـاع عـن الديمقراطيـة'' لتسـتنهض الجماهـير وتطيـح بالنظـام.[93] مـا الـذي حـدث في الفـترة القصـيرة بـين نوفمـبر ويناير وجعـل الحـزب الشـيوعي يغـيّر موقفـه ويسـتخدم منطقـا كان قـد رفضـه عـام 1948 وأجّـج الشـارع ضـده وألهـب المشـاعر عندمـا اسـتخدمه حـزب الأمـة لتبريـر دخولـه الجمعيـة التشريعيـة؟ مـن المؤكـد أن موقـف الشـيوعيين الأسـاسي المعـادي للنظـام لم يتغـيّر وصلابتهـم لم يلحقهـا الخـور وليـس هنـاك مـن تفسـير في رأينـا غـير ضغـط مـن الاتحـاد السـوفيتي خضعـوا لـه عقـب زيـارة ليونيـد بريجنيـف، السـكرتير العـام للحـزب الشـيوعي السـوفيتي، للسـودان في نوفمـبر 1961 والتـي أنشـأت علاقـات صداقـة وتعـاون مـع النظـام العسـكري في ظـل تنافـس الحـرب البـاردة بـين الكتلتـين الغربيـة والشرقيـة عـلى كتلـة دول العـالم النامـي. إن عـدم إثـارة عبـود لمسـألة معارضـة الشـيوعيين لنظامـه أثنـاء مباحثاتـه مـع بريجنيـف أمـر بعيـد الاحتـمال وليـس مـن المسـتبعد أن يكـون الأخـير قـد وعـد بالحديـث معهـم وربـما تليـين موقفهـم.[94]




أي إيحـاءات عنصريـة ضـد السـود في العـالم. وعندمـا يسـتخدم السـود أنفسـهم هـذه التعابـير فـإن هـذا يصبـح نوعـا مـن الاسـتلاب.

92. المصدر السابق، ص 390.

93. الحزب الشيوعي، **ثورة شعب**، ص 388.

94. يقـول الدكتـور القـدال في تقييمـه لمسـألة المجلـس المركـزي: ''تعـرض موقـف الحـزب لخـوض انتخابـات المجلـس المركـزي إلى نقـد مـن خـارج الحـزب وداخلـه. يقـول النقـد إن ذلـك الموقـف أعطـى



8

في عام 1963 وضعت قيادة الحزب الشيوعي لمديرية النيل الأزرق خطتها للعام وأعلنت فيها أن كل شبر من المديرية قد تحوّل "إلى نقطة انفجار ثوري" في وجه النظام وأن الحركة الجماهيرية قد بلغت "مستوى التنفيذ العملي للإضراب السياسي" وأن الواجب "الفوري والمركزي هو تفجير معركة الإضراب ..."[95] وتحركت قيادة الحزب بسرعة لتلجم هذا "التقدير اليساري" ولتعلن بدورها أنه لا يمكن التكهن بميقات تنفيذ الإضراب السياسي العام وأنه لا يمكن تقرير عما إن كان "هذا الإضراب يمكن أن تنفذه كل الطبقات في يوم واحد أو ساعة واحدة، أو في أي مكان يبدأ ... " وأن البداية قد تكون "للطبقة العاملة أو للزراع أو الطلاب، وقد تكون البداية في الخرطوم أو عطبرة أو بورتسودان أو الجزيرة ..."[96] ودعت القيادة للموقف الممكن والعملي وهو الانصراف لمهمة الإعداد للثورة من دون انشغال بميقاتها.




وعندما جاء الميقات كان مفاجئا حتى للذين انصرفوا للإعداد للثورة. لم تكن بداية مستصغر الشرر الذي أشعل النار الكبري من حظ الطبقة العاملة (الفئة العليا في تراتبية خطاب الحزب الشيوعي) أو من حظ المزارعين (الفئة الثانية في التراتبية) وإنما من حظ الطلاب (تلك الفئة التي لا تمثّل طبقة وإنما تعيش وضعا انتقاليا).[97] كان المكان حرم جامعة الخرطوم، وكان الميقات مساء

المجلس المركزي شرعية ما كان من الممكن له أن يحظى بها لو قاطع الحزب الانتخابات. بل أعلن بعض قادة الحزب اليوم خطأ ذلك الموقف. وحجة الحزب وحجة [معارضيه] ما زالتا تقفان وجها لوجه." **معالم**، ص 125.

95. الحزب الشيوعي، **ثورة شعب**، ص 436.

96. المصدر السابق، ص 437.

97. حول الطلاب ووضعهم الطبقي انظر ورقتنا "ثورة أكتوبر

الأربعـاء 21 أكتوبـر 1964، وكانـت المناسـبة نـدوة عـن الجنـوب — وهـو موضـوع لا ينشـغل بـه الوعـي الشـمالي عـادة إلا أنـه أصبـح موضـوع السـاعة لأنـه مثّـل مظهـرا بـارزا مـن مظاهـر فشـل سياسـات النظـام العسـكري. كان مـن الممكـن أن تمـرّ النـدوة بسـلام ولا يحـدث شيء، إلا أن الشرطـة تدخّلـت وسـقط الطالـب أحمـد القـرشي، عضـو الحـزب الشـيوعي، قتيـلا برصاصـة أصابتـه في رأسـه.[98] وفي صبـاح الخميـس انطلـق أسـاتذة جامعـة الخرطـوم لمستشـفي الخرطـوم حيـث احتشـدت جمـوع الجماهـير وأخـذوا جثـمان القـرشي المغطّـى بعلـم البـلاد في جنـازة مهيبـة إلى ميـدان عبـد المنعـم حيـث صلّـوا عليـه قبـل حملـه لقريتـه بالجزيـرة. ومـن ميـدان عبـد المنعـم اشـتعلت النـار.

وبالإضافـة للمظاهـرات التـي انطلقـت في العاصمـة كان هنـاك تطـوران هامـان أولهـما اجتـماع أسـاتذة جامعـة الخرطـوم مسـاء الخميـس الـذي تمخّـض عـن قرارهـم بتقديـم اسـتقالات جماعيـة، وثانيهـما هـو اتفـاق نقابـة المحامـين مـع عـدد مـن القضـاة الكبـار عـلى إصـدار بيـان مشـترك يديـن مـا حـدث في الجامعـة ويطالـب بالتحقيـق والمحاسـبة.[99] كانـت الاسـتقالات الجماعيـة لأسـاتذة جامعـة الخرطـوم مـا آذن ببدايـة العصيـان المـدني وإعـلان الإضراب السـياسي وكان التنسـيق بـين أسـاتذة الجامعـة والمحامـين والقضـاة بدايـة ميـلاد جبهـة الهيئـات التـي انطلقـت لتقـود الثـورة.



رغـم أن مـا حـدث ليلـة 21 أكتوبـر فاجـأ الحـزب الشـيوعي وباقـي الأحـزاب إلا أنـه كان السـبّاق في تقديـر الوضـع باعتبـار أن لحظـة انفجـار

ووعـد الحركـة الطلابيـة" في حيـدر إبرهيـم عـلي وآخريـن، **خمسـون عامـا عـلى ثـورة أكتوبـر السـودانية**، ص 95–103.

98. عـن وصـف لحظـة إصابـة القـرشي وعـن نشـاطه السـياسي انظـر شـهادة رفيقـه تـاج الـسر مكـي، "مـن قلـب المواجهـة"، المصدر السـابق، ص 342–343.

99. أحمـد بابكـر محمـد الخـير، "جبهـة الهيئـات: موعـد قصـير الأجـل مـع التاريخ"، المصـدر السـابق، ص 4–6.



"الأزمـة الثوريـة" قـد أتـت وأصـدر في الحـال بيانـا يـوم الخميـس 22 أكتوبـر دعـا فيـه لإضراب عـام وإسـقاط النظـام بهـدف إقامـة مـا أطلـق عليـه "حكومـة وطنيـة ديمقراطيـة مـن ممثـلي القـوى الثوريـة."[100]

ولقـد قذفـت أكتوبـر مـن أحشـائها بحالـة نضـج ثـوري كاملـة إذ انطلقـت الجماهـير في إجمـاع وتصميـم مذهـل وتصـدّع النظـام في المقابـل بسرعـة مذهلـة. وكانـت جبهـة الهيئـات، التـي ظهـرت للوجـود وهـي مسـتوية، هـي صيغـة أكتوبـر العبقريـة التـي قادتهـا بحكمـة ورشـد إلى بـر الأمـان. ولقـد كان لجبهـة الهيئـات حليفهـا في الجيـش وهـم مجموعـة الضبـاط الذيـن كانـوا عـلى اسـتعداد للتمـرد عـلى النظـام، وهـي مجموعـة كان في قلبهـا تنظيـم الضبـاط الأحـرار الـذي جمـع الضبـاط الشـيوعيين وحلفائهـم مـن اليسـار العريـض.[101] كانـت جبهـة الهيئـات في بدايتهـا تنظيـما سـيطرت عليـه العنـاصر المهنيـة مـن قانونيـين وأسـاتذة جامعيـين ولحـق بـه فيـما بعـد ممثلـو الأحـزاب والعـمال والمزارعـين. ورغـم أنهـا كانـت في اتجاههـا السـياسي العـام أقـرب إلى اليسـار العريـض إلا أنهـا لم تكـن تجسّـد الصيغـة النظريـة التـي طرحهـا الحـزب الشـيوعي حيـث تلعـب الطبقـة العاملـة "الـدور الطليعـي" وترسـم "الطريـق ... لحـل القضايـا القريبـة والبعيـدة."[102] وعندمـا انفجـرت ثـورة أكتوبـر لم تكـن




---

100. لنـصّ البيـان انظـر الحـزب الشـيوعي، **ثـورة شـعب**، ص 458–460.

101. نلاحـظ التـأسي الواضـح بالنمـوذج المـصري في إطـلاق اسـم "الضبـاط الأحـرار" عـلى هـذه التنظيـم. وقـد أصـدر التنظيـم في 8 نوفمـبر 1964 بيانـا عقـب اعتقـال اليوزباشـى فـاروق عثـمان حمـد الله واليوزباشـى الرشـيد نـور الديـن والبكباشـى جعفـر النمـيري والذيـن، حسـب البيـان، سـاعدوا نجـاح الثـورة بحصـار القـصر الجمهـوري وتقدّمـوا بعريضـة مـع غيرهـم تطالـب بتطهـير الجيـش. لنـصّ البيـان انظـر الحـزب الشـيوعي، **ثـورة شـعب**، ص 476–477.

102. المصدر السابق، ص 430.

الطبقة العاملة في مستوى هذا التوقع النظري[103] بل ولم يكن حزبها نفسه مهيأً للإمساك بالفرصة التاريخية وقيادة الثورة إلى النهاية رغم أنه هو الذي ألهم قيادة الثورة بشعار الإضراب السياسي. فعندما جاءت اللحظة التاريخية كان الحزب الشيوعي يعاني مما وصفه تقرير المؤتمر الرابع بـ "تخلف الأداء والتنفيذ وبُدائيتهما" ومشاكل داخلية أدّت "إلى انكماش [عضويته] لدرجة عاقت [قدراته] الذاتية وهو يواجه مهام ثورة أكتوبر."[104]

عندما تكوّنت حكومة الثورة الأولى فإنها عكست الميزان الثوري وكانت الغلبة فيها للقوى الحديثة بما في ذلك، ولأول مرة، وزير يمثّل العمال ووزير يمثّل المزارعين. إلا أن رئيس الوزراء، سر الختم الخليفة، لم يكن ثوريا بالمعنى الذي يعنيه الحزب الشيوعي — كان تربويا لم يُعرف له اتجاه سياسي ولا شك أن هذا كان عاملا سهّل الاتفاق عليه، إلا أن العامل الهام الآخر الذي رجّح كفّته كان علاقته بالجنوب حيث عمِل وأقام صلات طيبة مع النخبة الجنوبية جعلته معروفا لديهم.




---

103. يحكي فاروق أبو عيسى عن المذكرة التي رفعتها جبهة الهيئات للمجلس العسكري ويقول "قررنا دعوة شخصين من كل تنظيم ممن يودون المشاركة. وفي ذلك الأثناء جاءني عبد الخالق محجوب منزعجا وسأل عن الشفيع أحمد الشيخ وقال لي أين هم العمال؟ وأخذ مني مفتاح العربة وغاب لبعض الوقت وعاد ومعه عامل اسمه عِيد بيِّن سعيد وهو الذي وقع نيابة عن اتحاد العمال في المذكرة." "عن جبهة الهيئات"، في حيدر إبرهيم علي وآخرين، **خمسون عاما على ثورة أكتوبر السودانية**، ص 370.

104. الحزب الشيوعي، **الماركسية وقضايا الثورة السودانية: نص التقرير المجاز في المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي السوداني**، أكتوبر 1967 (الخرطوم: دار الوسيلة، [1987])، ص 122. يقول التقرير مفصّلا إن عضوية الحزب في تلك الفترة لم تكن تتعدي "بضع مئات" (نفسه، ص 122).



وفي ظل التكوين الثوري للوزارة ما كان من الممكن للحزبين التقليديين الكبيرين وجبهة الميثاق الإسلامي (حزب الإخوان المسلمين) أن يهدأ لهم بال وهم يرون اليسار يسيطر على الحكومة. وتحرّك حزب الأمة وفعل ما برع في فعله تاريخيا فاستقدم حشود الأنصار للعاصمة في فبراير 1965 وأسقط الحكومة. وهكذا انهارت حكومة ثورة المدينة في مواجهة "عنف البادية" — تلك البادية وجماهيرها المستغلَّة التي عجز الحزب الشيوعي عن الوصول إليها ولم يستطع تحريرها عبر محاولته لتصفية الإدارة الأهلية التي كانت ضمن الأجندة الأكتوبرية.[105] وعكست حكومة الخليفة الثانية توازن القوى التقليدي وأمسكت الأحزاب التقليدية بزِمام الأمور.

ولعل إنجاز حكومة الخليفة الانتقالية الأكبر كان مؤتمر المائدة المستديرة لحلّ قضية الجنوب الذي عُقد في الخرطوم في مارس 1965. وقد استند هذا الإنجاز على موقف الحكومة الإيجابي من الجنوبيين والتي أصبح فيها كلمنت مبورو أول وزير جنوبي لوزارة سيادية وحسّاسة هي وزارة الداخلية. رأى الساسة الجنوبيون في حكومة أكتوبر جدية لم يعهدوها من قبل وكانوا على استعداد للتعاون معها. وعندما انعقد المؤتمر انقسم قادة الأحزاب الجنوبية بين فكرتي الاتحاد الفدرالي والانفصال، ورفض قادة الأحزاب الشمالية الفكرتين. وفي خطابه للمؤتمر أنحى عبد الخالق باللائمة على سياسة التنمية غير المتوازنة التي مارستها الحكومة الاستعمارية والحكومات الوطنية وحمّل أيضا الأحزاب الجنوبية مسئوليتها في تعميق المشكلة. وعارض عبد الخالق الحل الفدرالي واعتبره "غير ذي جدوى في محو التخلف" واقترح البديل الذي ظل الحزب




105. حول المذكرة التي أعدها الشفيع أحمد الشيخ بشأن تصفية الإدارة الأهلية وتبعات المذكرة انظر أحمد إبراهيم أبو شوك، **السودان: السلطة والتراث**، الجزء الثالث (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2010)، ص 41–59.



الشيوعي يطرحه منذ الاستقلال وهو "تطبيق نظام حكم لامركزي يتيح للمديريات الجنوبية حكما ذاتيا ... "[106] ورغم موقف عبد الخالق السياسي البنّاء تجاه الجنوبيين إلا أنه تجاهل عمق مشاعرهم عندما تطرّق للجيش وقال: "إن المسئولية تحتم علينا مساندة القوات المسلحة للنهوض بمسئولياتها ورفع معنوياتها."[107] كان عبد الخالق بهذا الكلام يغازل الجيش من ناحية ويعبّر من ناحية أخرى عن الإجماع السائد وسط السياسيين الشماليين الذي عادة ما يضع الجيش فوق النقد والمحاسبة ويكيل له المديح رغم الانتهاكات والجرائم والفظائع التي كان يرتكبها في الجنوب.

لم يصل مؤتمر المائدة المستديرة لاتفاق وفقد السودان فرصته الأخيرة التي قدّمتها له ثورة أكتوبر ليصل لسلام مع نفسه ويعالج حربه الأهلية بحكمة ومسئولية.




كان الحزبان الكبيران حريصان على عقد الانتخابات بأسرع فرصة ممكنة للتخلص من اليسار. وفي أبريل – مايو 1965 عُقدت انتخابات الجمعية التأسيسية في الشمال فقط لسوء الأحوال الأمنية في الجنوب، وكانت النتيجة 75 مقعدا لحزب الأمة، 54 مقعدا للحزب الوطني الاتحادي، 11 مقعدا للحزب الشيوعي، 10 مقاعد لمؤتمر البجا، 5 مقاعد لجبهة الميثاق الإسلامي، 3 مقاعد لحزب الشعب الديمقراطي، 15 مقعدا للمستقلين.[108] وكانت الدائرة التي اتجهت لها كل الأنظار في هذه الانتخابات هي دائرة أم درمان الجنوبية التي رشّح فيها عبد الخالق نفسه ضد أزهري. وبعد معركة ضارية فاز أزهري بأغلبية ألف صوت، وهي أغلبية ضئيلة لرمز وطني كبير كأزهري.

---

106. عبد الماجد بوب، **جدل الوحدة والانفصال**، ص 118.

107. المصدر السابق، ص 119.

108. *Keesing's Contemporary Archives* (June 26–July 3, 1965), p 20828.

كانـت كل مقاعـد الشـيوعيين في دوائـر الخريجـين. وهكـذا ووسـط الهجمـة الشرسـة عـلى شـعارات أكتوبـر وتطلعاتهـا التـي شـنّها اليمـين ممثـلا في حـزب الأمـة وجبهـة الميثـاق الإسـلامي وتحالـف معهـما الوسـط ممثـلا في الحـزب الوطنـي الاتحـادي جسّـدت دوائـر الخريجـين مـا تبقّـى مـن روح الثـورة. لم يكـن التصويـت للنـواب الشـيوعيين وحلفائهـم تصويتـا للحـزب الشـيوعي ذي المرجعيـة الماركسـية – اللينينيـة بقدرمـا كان تصويتـا للتمسـك بـما أيقظتـه أكتوبـر في صـدور الشريحـة المتعلمـة (وباقـي القـوى الحديثـة) مـن شـهوة للتغيـير مـن أجـل سـودان جديـد ومختلـف. ووسـط انتصـار النـواب الشـيوعيين كان هنـاك انتصـار خـاص قـدّم أسـطع رمـز عـلى الوعـد الـذي نـشرت أكتوبـر شراعـه في الأفـق وهـو انتخـاب فاطمـة أحمـد إبراهيـم كأول امـرأة تدخـل البرلمـان.

9

لم تـدم فرحـة الحـزب الشـيوعي بنوابـه طويـلا إذ حـدث وبعـد شـهور قليلـة مـا لم يكـن في الحسـبان، عـلى الأقـل في حسـبان الشـيوعيين. في مسـاء الثلاثـاء 9 نوفمـبر 1965 وقـف الطالـب شـوقي محمـد عـلي مشـاركا في نقـاش في نـدوة بمعهـد المعلمـين (حاليـا كليـة التربيـة بجامعـة الخرطـوم) وتحـدّث عـن حـادث عائشـة و"حديـث الإفـك" ووصفـه بالبغـاء، ووصـف الطالـب نفسـه بأنـه شـيوعي. كانـت هـذه هـي الـشرارة التـي اسـتطاع الإسـلاميون في جبهـة الميثـاق الإسـلامي أن يحولوهـا لنـار لم يهـدأ اضطرامهـا إلا عندمـا نالـوا بغيتهـم. فجّـر الإسـلاميون في الحـال حملـة ضاريـة تطالـب بحـلّ الحـزب الشـيوعي "الملحـد". وبعـد الفـراغ مـن تنسـيق سريـع وكامـل بـين جبهـة الميثـاق الإسـلامي والحزبـين الكبيريـن اجتمعـت الجمعيـة التأسيسـية في 15 نوفمـبر 1965 وقـررت حـلّ الحـزب الشـيوعي وإخـراج نوابـه بأغلبيـة كاسـحة (151 نائبـا ضـد 12 نائبـا وامتنـاع 9 نـواب).[109]

كان قـرار حـلّ الحـزب الشـيوعي أكـبر نكسـة للديمقراطية في السـودان

109. لتفاصيـل مـا جـرى في الجمعيـة التأسيسـية والأزمـة الدسـتورية التـي تلـت انظـر القـدال، **معـالم**، ص 157–160.



إذ أن الجهة التي اتخذته هي نفس الجهة التي ينيط بها الدستور حماية الديمقرطية. وكان حلّ الحزب الشيوعي ولا يزال أكبر انتصار للحركة الإسلامية إذ أنها ومنذ لحظتها نجحت في أن تفرض الإسلام كخطاب سائد على كل المستويات. فحتى 14 نوفمبر 1965 كان أكبر خطر على الديمقراطية في السودان هو المؤسسة العسكرية ومنذ 15 نوفمبر 1965 أصبح الإسلام بطرحه الشمولي هو الخطر الأكبر على الديمقراطية. ورغم أن الحزب الشيوعي لم يهاجم الإسلام ولم يكن الإلحاد قضية من القضايا التي طرحها خطابه السياسي، إلا أن الحمّى التي نشرتها حملة الإسلاميين نجحت في خلق جو إرهاب فكري شامل لم يرتفع في ظله صوت واحد يذكّر السودانيين أن الديمقراطية تعطي المواطن السوداني حقّ أن يكون ملحدا لو شاء.

واجه الحزب الشيوعي سؤالا مصيريا وهو: ما العمل؟ صحيح أن نشاط الحزب الشيوعي على مستوى معين لم يتوقف فعقد في أكتوبر 1967 مؤتمره الرابع الذي أصبح تقريره من أهم وثائق الحزب، وصحيح أن عبد الخالق حقّق أخيرا الطموح الذي سيطر عليه وفاز في دائرة أم درمان الجنوبية بينما فاز النقابي الحاج عبد الرحمن في دائرة عطبرة في انتخابات أبريل-مايو 1968 (وكان أحمد سليمان قد سبقهما بالفوز في دائرة جغرافية في الخرطوم)، إلا أنه كان ثمة انسداد كبير في الطريق نتج عن لاقانونية الحزب الشيوعي.




كان الرد الإيجابي الأساسي هو تحويل الحزب الشيوعي إلى حزب اشتراكي يعتمد برنامجا وطنيا ديمقراطيا. وكان الدكتور فاروق محمد إبراهيم، عضو اللجنة المركزية السابق، من أبرز الداعين لهذا التحوّل وقد كتب عن الفكرة وسقوطها قائلا:

> انتهت المناقشة المستفيضة على نطاق الحزب إلى قرار دعوة المؤتمر الرابع للانعقاد [في الجريف في أبريل 1966] لإجازة تلك السياسة ولانتخاب لجنة مركزية للحزب في شكله الجديد ... وبعدما وصلنا لمكان انعقاد المؤتمر [تم إخطارنا] أن المؤتمر تغيرت صفته من المؤتمر الرابع إلى المؤتمر التداولي، وأن الأمين



العام للحزب المرحوم عبد الخالق لن يتمكن من المشاركة فيه لأنه اضطر للسفر إلى موسكو للمشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي المنعقد هناك في نفس التاريخ ... فوجئنا بعد عودة الأمين العام بفترة [بإخطارٍ] من الأمين العام والمكتب السياسي (اللجنة التنفيذية) أن قرار المؤتمر بتحويل الحزب الشيوعي إلى حزب طليعي انحراف يميني مؤداه حلّ الحزب الشيوعي ... دُعيت إلى دورة اللجنة المركزية التي انعقدت في ضاحية من ضواحي الخرطوم في نوفمبر 1966. نفس أعضاء اللجنة الخمسة وخمسين الذين انتخبهم مؤتمر الجريف ... أدانوا القرارات التي اتخذوها بأنفسهم قبل ستة أشهر وشكروا الأمين العام على تصحيح الانحراف اليميني. شكر الأمين العام الرفاق السوفيت للنصائح القيمة التي أسدوها خلال زيارته لتصحيح ذلك الانحراف ... [110]




وهكذا وعلى مستوى الجبهة السياسية قُبرت فكرة الحزب الاشتراكي. أما على مستوى الجبهة الفكرية فلقد انتبه الحزب الشيوعي إلى خطورة الإسلام وكيف أنه لم يعد مجرد إسلام صوفي منكفيء على نفسه أو إسلام طائفي ينفر منه المتعلمون وإنما أصبح إسلاما يطرح نفسه كحل شامل على مستوى السياسة والاقتصاد والتشريع والمجتمع وتحمل ألويته شريحة متعلمة وحركية تشارك اليساريين فصول الدراسة وقاعاتها وفضاءات القوى الحديثة الأخرى. خلص الشيوعيون أنه وفي مواجهة هذا التحدي "لا يكفي ... الاقتناع بالدفاع عن الحياة السياسية العلمانية وشعار فصل السياسة عن الدين"[111] — وهي خلاصة حفزتهم لاتباع خطة "لاسترداد" الدين من "الرجعية" التي "تزيفه" والعمل على

---

110. فاروق محمد إبراهيم، "الحزب الشيوعي السوداني والدعوة لإصلاح وتطوير الأحزاب السياسية ولقيام حزب ديمقراطي جديد"، **قضايا سودانية**، العدد 4 (أبريل 1994)، ص 13.

111. الحزب الشيوعي، **الماركسية وقضايا الثورة السودانية**، ص 169.

تنمية خط دعائي "حول قضية الدين الإسلامي وعلاقته بحركة التقدم الاجتماعي" وهو خط دعائي لا يقتصر على نقد الطرح "الرجعي" للإسلام وإنما "يتعدّى ذلك لجعل الدين الإسلامي عاملا يخدم المصالح الأساسية لجماهير الشعب ..."[112] وبهدف دفع هذا الخط كوّن الحزب الشيوعي لجنة للدراسات الإسلامية.

وكان مما أصدرته هذه اللجنة مراجعات لعبد الخالق بعنوان **آراء وأفكار حول فلسفة الإخوان المسلمين**. وفي هذه المراجعات استعرض

---

112. المصدر السابق، ص 169. هذا الخط الدعائي الذي يحاول توظيف الإسلام سياسيا لمصلحة الحزب الشيوعي كان قد ابتدره في الاتحاد السوفيتي سلطان قاليف (1900–1940) (Sultan Galiev) الماركسي التتري والذي رأى المجتمع التتري المسلم "باستثناء عدد قليل من الإقطاعيين المالكين للأرض والبرجوازيين الكبار، كوحدة تعرضت بأجمعها لقهر الروس في ظل القيصرية. وليس هناك بالتالي سبب لتقسيم هذا المجتمع بتقسيمات مصطنعة وبصراعات طبقية ..." وبما أن المجتمع التتري غارق في تقاليده الإسلامية فقد دعا قاليف، والذي لم يكن مؤمنا، لضرورة أن تتعامل الثورة الاشتراكية تعاملا رفيقا مع الإسلام عبر برنامج تدريجي لمحاربة التعصب وإشاعة العلمنة.




Maxime Rodinson, *Marxism and the Muslim World*, trans. by Michael Pallis (London: Zed Press, 1979), p. 134.

وفي مصر حاولت (حمتو) تقديم "تفسير تقدمي واشتراكي للدين الإسلامي وقد اضطلع بهذه المهمة أحد كوادر المنظمة من رجال الدين وهو الشيخ محمد أبو الحسن جاد الله الغنيمي الذي أصدر كتاب **الشيوعية في الإسلام** ..." وفي هذا الكتاب يتحدث عن ملكية المجتمع لوسائل الإنتاج والملكية الجماعية للثروة ويقول إن الحل هو الشيوعية." رفعت السعيد، **تاريخ المنظمات اليسارية المصرية** 1940 – 1950، ص 227–228.

عبد الخالق بعض كتابات سيد قطب وأبي الأعلى المودودي ومحمد قطب. وإن قصد عبد الخالق أن تكون مراجعاته ردا ودحضا ماركسيا لفكر الإخوان المسلمين فإن التوفيق لم يحالفه، إذ أن معالجته تؤكد في واقع الأمر انتصار الإخوان المسلمين في نشر إرهابهم الفكري ليطاله هو نفسه. فعبد الخالق الذي يتحدّث في السياسة بلغة الماركسي – اللينيني يتحوّل فجأة في هذه المراجعات لشخص آخر يتبنّى خطابا مسلما سنيا اعتذاريا تبريريا مألوفا. وفي حماسه "لاسترداد" محمد و"نزعه" من الإسلاميين يسمح عبد الخالق لنفسه باستخدام لغة لا تليق عندما يصف هؤلاء المنظّرين من الإخوان المسلمين (الذين يقول عنهم إنهم يريدون أن ينهضوا "بالرسالة السماوية كما نهض من قبل أصحاب الرسول (صلعم) ولكن بلا وحي منزل وقد ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبيين") بأنهم "أقزام لا يقتربون إلى شسع نعله."[113] من المؤكد أن الخطاب "الإيماني" الذي تبناه




---

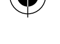
113. عبد الخالق محجوب، **آراء وأفكار حول فلسفة الإخوان المسلمين** (الخرطوم: دار عزة، 2001)، ص 86. (الشِّسع أحد سيور النعل). في مقالته "كيف أصبحت شيوعيا؟" والتي ظهرت عام 1954 ردّا على منشور وُزع حينها وهاجم الإسلام ونادى بحياة الشيوعية تحدّث عبد الخالق عما جذبه للشيوعية. وقد تحدّث على مستويين هو مستوى الماركسية كفلسفة "تمتاز بالتناسق ولأول مرة تضع قيما للأدب والتاريخ والفن والفلسفة" ومستوى ما وصفه "بالفكرة السياسية الشيوعية في السودان". وأكّد تأكيدا قاطعا أن الشيوعية كموقف سياسي لا تدعو لإسقاط الدين وأنها "تدعو إلى توحيد صفوف المسلمين [من السودانيين] والمسيحيين والوثنيين ضد عدو واحد هو الاستعمار الأجنبي وبهدف واحد هو استقلال السودان وقيام حكم يسعد الشعب ويحقق أمانيه." ويتحدّى عبد الخالق المعارضين بقوله "إن الرجل الشريف يصرع الفكرة السياسية بالفكرة السياسية ويعارض فكرة معينة بالحجة والمنطق ... " (عبد



عبد الخالق في هذه المراجعات لا يعكس موقفه كماركسي وأنه كتب ما كتب بدواعي مقتضيات ما أراده تكتيكا سياسيا. وعندما ننظر لما أنتجه هذا الخط الدعائي للحزب الشيوعي منذ أن كتب عبد الخالق مراجعاته وكتب الرشيد نايل **الإخوان المسلمون أعداء الله وأعداء رسوله** إلى الآن فإننا لا نجد أعمالا تعكس الموقف الماركسي من الدين.[114]

برز الأثر الكارثي لحلّ الحزب الشيوعي على مستوى السياسة

الخالق محجوب، **دفاع أمام المحاكم العسكرية** (الخرطوم: دار عزة، 2001)، ص 16–24). والملاحظ في هذه المقالة أن عبد الخالق يجذب القضية جذبا لمنطقة المواجهة السياسية ويبعدها عن منطقة المواجهة الفلسفية، أو (لو استخدمنا المصطلح الماركسي) يجذبها لمنطقة المادية التاريخية ويبعدها عن منطقة المادية الجدلية. وفي عام 1968 دخل محمود محمد طه في مواجهة مع الماركسية في محاضرة ألقاها بعنوان "الماركسية في الميزان" صدرت في رسالة فيما بعد في عام 1973. وفي هذه المحاضرة حرص طه على جذب القضية لمنطقة المادية الجدلية (مع عدم إهمال المادية التاريخية) وتعرّض بتفصيل لما ظل الشيوعيون السودانيون يتحاشون الحديث عنه إذ تحدّث عن فكرة الجدل عند هيقل وماركس والاختلاف بينهما والأساس الفلسفي لإلحاد ماركس. **الماركسية في الميزان** ([أم درمان: مطبوعات الإخوان الجمهوريين]، 1973)، خاصة ص 25–31.





114. وفي واقع الأمر فإن الشيوعيين السودانيين أصابهم هلع من الإسلام جعلهم في حالة تراجع مستمر. ومن أبرز مظاهر هذا التراجع تطهير خطابهم من تعبير "دولة علمانية". فهذ التعبير الذي استخدمته أهم وثيقة للحزب وهي تقرير المؤتمر الرابع وكان يستخدم بحرية في أدبيات الحزب أصبح محظورا في ظل النظام الفكري لمحمد إبراهيم نقد وتم استبداله بتعبير غير علمي هو تعبير "الدولة المدنية".



القوميــة في الحــال عندمــا التفتــت الجمعيــة التأسيســية لمهمتهــا التــي انتخبــت أصــلا لهــا وهــي وضــع الدســتور، إذ نجحــت جبهــة الميثــاق الإســلامي وهــي ممتلئــة ثقــة وصلفــا بعــد قيادتهــا لحملــة حــلّ الحــزب الشــيوعي في ابتــزاز الحزبــين الكبيريــن وإرهابهــما ووضــع مــشروع الدســتور الإســلامي في قلــب مناقشــات الجمعيــة. وكانــت فكــرة الدســتور الإســلامي انتكاســا كبــيرا عــلى مســتوى الفكــرة الدســتورية نفســها إذ أن مثــل هــذا الدســتور لا يقــرّ حريــة الفكــر والتعبــير كــما بــرز في مســألة حــلّ الحــزب الشــيوعي واتجــاه مــا وُصــف بتحريــم الإلحــاد، عــلاوة عــلى انتهاكــه لحــق المســاواة بــين النســاء والرجــال وحــق المســاواة بــين المســلمين وغــير المســلمين. والدســتور الإســلامي يفتــح البــاب بالطبــع لتطبيــق الشريعــة الإســلامية بــما تحويــه مــن عقوبــات تتميــز بقســوتها وغلاظتهــا ولاإنســانيتها.

10

وبينــما كانــت الجمعيــة التأسيســية تهلــك وقتهــا في المناقشــات الانصرافيــة للدســتور الإســلامي وبينــما كانــت الحــرب الأهليــة – التــي كانــت الحكومــة تنفــق الملايــين عليهــا – تتواصــل بــكل تقتيلهــا وتدميرهــا والوضــع الاقتصــادي في كل الســودان يــزداد تأزمــا وانحــدارا — تحــرّك تنظيــم الضبــاط الأحــرار ليلــة الخامــس والعشريــن مــن مايــو 1969 بقيــادة العقيــد جعفــر النمــيري وانتــزع الســلطة في انقــلاب غــير دمــوي.

كانــت قيــادة الحــزب الشــيوعي عــلى علــم مســبّق بالانقــلاب وكانــت قــد ناقشــت الفكــرة في دورة اللجنــة المركزيــة في مــارس 1969 ورفضتهــا، كــما ناقشــها المكتــب الســياسي في 9 مايــو ورفــض مــرة أخــرى المشــاركة في الانقــلاب.[115] إلا أن هــذا لا يعنــي بالــضرورة أن قيــادة الحزب الشــيوعي (وعبــد الخالــق خاصــة بوصفــه حلقــة الاتصــال بــين الحــزب والجيــش) لم تطــرح موقفــا سياســيا معلنــا أمــام عضويــة الحــزب والــرأي العــام بينــما أعطــت العســكريين الضــوء الأخــضر لتنفيــذ مــا ظلــوا يتهيــأون

115. القدال، **معالم**، ص 212.



لــه ويتحينــون لحظتــه، إذ أن المهمــة الأساســية للعســكريين المسيّســين هــي الاســتعداد للقيــام بانقــلاب أو انقــلاب مضــاد.[116] إن مشــاركة الضابطـين الشـيوعيين المقـدم بابكـر النـور والرائـد هاشـم العطـا في مجلس

---

116. حسـب تقريـر سـكرتارية اللجنـة فـإن المقـدم عثمان حـاج الحسـين (أبشـيبة)، وهـو عضـو ملتـزم في الحـزب الشـيوعي، شـارك في انقـلاب 25 مايـو مـع القـوات التـي تحركـت مـن خـور عمـر "في الوقـت الـذي عـارض فيـه الحـزب الاشـتراك في الانقـلاب وامتنـع الضبـاط الشـيوعيون عـن المشـاركة. وبعـد الانقـلاب حوسـب أبشـيبة داخـل التنظيـم، وبـرر اشـتراكه بأنـه لم يكـن يعـرف قـرار المكتـب السـياسي ..." (**19 يوليـو 1971**، ص 49–50). إن الحديـث عـن محاسـبة أبشـيبة ومـا قالـه ترسـم صـورة عضـو حـزبي غـير مسـئول إذ كيـف يشـارك حـزبي مشـبع بـروح الانضبـاط العسـكري أصـلا في عمـل خطـير مثـل انقـلاب بـدون الرجـوع لحزبـه؟ وإن قبلنـا مـا قالـه أبشـيبة فـإن ذلـك يعنـي فشـل الحـزب في إيصـال قـرار خطـير كهـذا عـلى مـدى فـترة تزيـد عـلى الأسـبوعين للضباط الشـيوعيين في منطقـة الخرطـوم، وهـذا أمـر بعيـد الاحتمال إذ مـن المؤكـد أن هـذه الفـترة كانـت ضمـن فـترة التحضـير المكثّـف للانقـلاب. ويبقـى سـؤال كبـير آخـر: هـل أصـدر الحـزب أوامـره لبعـض ضباطـه بالاشـتراك وللبعـض الآخـر بعـدم الاشـتراك حتـى لا يفقـد كل ضباطـه في حالـة فشـل الانقـلاب؟ مـن الواضـح أن الحـزب اسـتفاد فائـدة كبـيرة مـن اشـتراك أبشـيبة في انقـلاب 25 مايـو إذ شـغل فيـما بعـد منصبـا حساسـا فأصبـح قائـدا للحـرس الجمهـوري واسـتطاع إخفـاء عبـد الخالـق وتنفيـذ انقـلاب 19 يوليـو الـذي كان الحـرس الجمهـوري قوتـه الأساسـية. إن الشـيء الـذي مـن الممكـن أن نسـتخلصه عـن أبشـيبة عـلى ضـوء مـا قـام بـه أنـه كان عضـوا حزبيـا منضبطـا وعـلى اسـتعداد للتضحيـة بحياتـه وهـو ينفـذ أوامـر حزبـه. حـول الـدور الـذي لعبـه أبشـيبة في التمهيـد للانقـلاب وتنفيـذه انظـر فـؤاد مطـر، **الحـزب الشـيوعي السـوداني: نحـروه أم انتحـر؟** (بـيروت: دار النهـار، 1971)، ص 46.







قيادة الانقلاب ترجّح احتمالَ مشاركةٍ شيوعيةٍ في الانقلاب، وهو أمر من المستبعد أن يكون قد تمّ بدون موافقة الحزب الشيوعي.

كان التوجه اليساري للانقلاب واضحا إذ اعتمد بيانه الأول على ميثاق القوى الاشتراكية — التكوين الذي كان الشيوعيون وحلفاؤهم قد أقاموه لخوض معركة الانتخابات الرئاسية. وضمّ مجلس وزراء الانقلاب أربعة وزراء شيوعيين كان أبرزهم جوزيف قرنق الذي أصبح وزيرا لأول وزارة أُنشئت لشئون الجنوب مما عكس عزم النظام على معالجة قضية الجنوب طبقا لرؤية الحزب الشيوعي القائمة على الحكم الذاتي الإقليمي.




ورغم أن الانقلاب أعلن حلّ جميع الأحزاب إلا أن الحزب الشيوعي تمتّع بوضع خاص وضعه في منزلة بين الحظر الاسمي وحرية الحركة الفعلية. وانقسمت قيادة الحزب بشأن تحديد طبيعة النظام الجديد وما يجب أن يفعله الحزب في ظله. كان هناك تيار قوي وصف نفسه "بالتيار الثوري" أبدى حماسا تاما للانقلاب والانخراط في مؤسساته. إلا أن عبد الخالق عبّر عن موقف مختلف، وهو الموقف الذي اصبح موقف الغالبية وبَذَر بذرة المواجهة الدموية بين النظام والشيوعيين فيما بعد.

إن الوثيقة التي تعبّر عن موقف عبد الخالق أوضح تعبير وأصرحه هي التقرير الذي قدّمه إلى المؤتمر التداولي لكادر الحزب المنعقد في فبراير 1970. ونبرة عبد الخالق في هذه الوثيقة نبرة موقف نظري قاطع في وثوقه ونلمس فيها حسا قويا باستشراف السلطة وخاصة وأن الحزب قد لامسها. والصورة العامة التي يرسمها عبد الخالق هي صورة مواجهة طبقية تقف في يسارها الطبقة العاملة والمزارعين وفي يمينها البرجوازية. وهذه الطبقات تعبّر عن مصالحها من خلال تكوينات سياسية محدّدة وأهم تكوينين يركّز عليهما التقرير هما الحزب الشيوعي والمجلس العسكري للانقلابيين.

وبينما أن الأمر واضح في حالة الحزب الشيوعي إذ أنه منحاز لمصالح الكادحين (مجموع العمال والمزارعين)، إلا أن الأمر ينطوي

على تعقيد فيما يتعلّق بالمجلس العسكري وهو تعقيد ينتج من الطبيعة الطبقية للجيش. إن الجيش لا يشكّل طبقة بالطبع ولكن أفراده يمكن تصنيفهم لفئات طبقية مختلفة حسب منشئهم الطبقي من ناحية والمرتبة التي يحتلونها في التسلسل الهرمي للمؤسسة العسكرية من ناحية أخرى. وهكذا وبينما يمكن اعتبار الجنود وضباط الصف أقرب طبقيا للعمال والمزارعين فإن صغار الضباط هم جزء من البرجوازية الصغيرة وكبارهم جزء من البرجوازية الكبيرة. ولقد رأى عبد الخالق أن ضباط السلطة الجديدة ينتمون للبرجوازية الصغيرة بحكم مرتَّباتهم التي يتلقونها من جهاز الدولة وبحكم إيديلوجيتهم.




وهذه الطبيعة البرجوازية الصغيرة للسلطة تجعلها في وضع متذبذب إذ أنها قابلة للانحياز للكادحين ولكنها قابلة في نفس الوقت للانحياز للبرجوازية. والسبيل المفتوح أمام السلطة هو ارتقاؤها لتصبح سلطة ''ديمقراطيين ثوريين'' مثلما حدث في حالة نظام عبد الناصر مثلا. ويقول عبد الخالق في تعريفه لما يعنيه بهذه العبارة أنه ''عندما تورد مطبوعاتنا هذه العبارة فهي تتصور تصورا كاملا تلك الفِرَق من البرجوازية الصغيرة التي أثبتت عمليا موقفا حازما ضد الاستعمار القديم والحديث وفي سبيل تغيير الحياة الاجتماعية — تتصور شعارات وتطبيقات بعينها مثل التأميم، الإصلاح الزراعي، النداء للاشتراكية، الديمقراطية الجديدة ... إلخ ... ومن هذه الزاوية فإن عبارة الديمقراطيين الثوريين تعني أيضا مجموعة من النشاط السياسي لفئات من البرجوازية الصغيرة تستهدف إحداث ثورة ديمقراطية عميقة.''[117]

وفي مقابل البرجوازية المتربصة بالتغيير التي تمثّلها قوى مثل

117. ''التقرير المقدم من السكرتير العام للجنة المركزية الزميل عبد الخالق محجوب إلى المؤتمر التداولي لكادر الحزب''، مطر، **الحزب الشيوعي السوداني: نحروه أم انتحر؟**، ص 113–114.



حزب الأمة والوطني الاتحادي واحتمال الخطر الناشيء من التذبذب البرجوازي الصغير للسلطة العسكرية يقف العمال والمزارعون بقيادة حزبهم الشيوعي سدّا منيعا ضد الثورة المضادة. إلا أن الغاية الاستراتيجية التي يريد عبد الخالق الوصول إليها تصطدم بواقع ضعف الطبقة العاملة وهامشيتها.

وبإزاء هذا الواقع فإن عبد الخالق يضطر لتقديم الدور التاريخي للمزارعين. وبما أن المزارعين لا يمثلون طبقة واحدة متجانسة إذ أن بينهم الأغنياء والمتوسطين والفقراء فإن دورهم يأتي في مرحلة الثورة الديمقراطية، وهي مرحلة تطور غير رأسمالي ذي اقتصاد مختلط ومتعدد الأشكال يحوي "قطاع الدولة (جنين الاشتراكية) والقطاعات الرأسمالية المختلفة التي تعمل وفقا لقوانين السوق."[118] وعلاوة على ذلك فهناك سمة خاصة حاسمة لهذه المرحلة وهي أنها مرحلة "ثورة الإصلاح الزراعي"[119] — وهذا يعني عمليا أن المزارعين هم القوة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأساسية التي لا يمكن أن تتحقق الثورة الديمقراطية إلا باستنهاضها. والثورة الديمقراطية هذه باقتصادها غير الرأسمالي والدور الحاسم للمزارعين ستمكّن السودان من تخطّى مرحلة "الثورة الديمقراطية البرجوازية القديمة".




وحسب النظرية فإنه وبعد أن ينجز المزارعون مهمتهم التاريخية تتحرّك الطبقة العاملة لتأخذ مركز الصدارة وتستلم المشعل وتنتقل بالثورة لمرحلة الاشتراكية. وفي قلب هذه العملية التاريخية يقف الحزب الشيوعي الذي:

> يرعى ... بحزم التطور المستقل للطبقة العاملة السودانية لتصبح خطوة وراء خطوة قائدة للجماهير الكادحة في بلادنا، لتبني خطوة وراء خطوة الحلف الثابت بينها وبين جماهير المزارعين الكادحة. وهذه الرعاية ناشئة من موقفنا الإيديلوجي كشيوعيين والقائل

---

118. المصدر السابق، ص 123.

119. المصدر السابق، ص 105.





بـأن الثـورة الاشـتراكية تقودهـا الطبقـة العاملـة المتراصـة خلـف حزبهـا الماركسـي اللينينـي، وأنـه مهـما تعـددت الأشـكال للسـلطة التـي تقـود عمليـة بنـاء المجتمـع صـوب الاشـتراكية فإنهـا ذات محتـوى واحـد هـو دكتاتوريـة البروليتاريـا المتحالفـة مـع كادحـي المزارعـين.[120]

وكـما أشرنـا فـإن الحـزب الشـيوعي ورغـم موقفـه النظـري أن "الأزمـة الثوريـة" لم تنضـج لاسـتلام السـلطة إلا أنـه سـاند الانقـلاب، وهـي مسـاندة وضعهـا عبـد الخالـق في تقريـره في إطـار تصـور تكتيكـي أوسـع بـأن دعـا "لتحويـل الانقـلاب العسـكري إلى ثـورة شـعبية خـلال عمليـة معقـدة مـن التحالفـات والـصراع ضـد الاتجاهـات السـلبية لفئـات البرجوازيـة الصغـيرة ... "[121]



هـذا الـصراع مـع مـا وصفـه عبـد الخالـق "بالاتجاهـات السـلبية لفئـات البرجوازيـة الصغـيرة" مـا لبـث أن وصـل نقطـة الانفجـار في 16 نوفمـبر 1970 عندمـا تحـرّك النظـام ضـد عبـد الخالـق وجناحـه وأبعـد كلا مـن المقـدم بابكـر النـور والرائـد هاشـم العطـا بالإضافـة للرائـد فـاروق عثـمان حمـد الله مـن المجلـس العسـكري واعتقـل كلا مـن عبـد الخالـق وعـز الدين عـلي عامـر، بالإضافـة لفصـل عـدد مـن الضبـاط الشـيوعيين وحلفائهـم.

11

كانـت الشـهور التـي تلـت فـترة صعّـد فيهـا النظـام حملتـه المعاديـة للحـزب الشـيوعي وتصاعـد فيهـا الـصراع في داخـل الحـزب نفسـه بـين جناحيـه. وفي 29 يونيـو 1971 وقـع حـادث لا شـك أنـه هـزّ ثقـة النظـام بقدراتـه الأمنيـة إذ أن عبـد الخالـق تمكّـن مـن الهـروب مـن معتقلـه. لم يكـن هـروب عبـد الخالـق هروبـا عاديـا وإنـما كان حدثـا ذا مغـزى خطـير لم ينكشـف إلا بعـد عشريـن يومـا عندمـا قـاد الرائـد هاشـم العطـا انقلابـا في 19 يوليـو 1971 أزاح مجلـس النمـيري العسـكري وأعلـن نفسـه كـ "حركـة تصحيحيـة".

---

120. المصدر السابق، ص 136.

121. المصدر السابق، ص 135.



كان عبد الخالق قد أعدّ تصوره لما سيفعله النظام الذي سيولد وهي وثيقة **حول البرنامج** التي كتبها أثناء فترة اعتقاله، وهي وثيقة ذات طبيعة تخطيطية تتناول رؤوس القضايا الأساسية مثل الثورة الاقتصادية والتعليم والجنوب والدين والجيش والقطاع التقليدي والديمقراطية.[122]

وفي مساء يوم الانقلاب أصدرت اللجنة المركزية بيانا دعت فيه أعضاء الحزب وحلفاءه للالتفاف حول "الثورة" وأن "يبدأوا فورا في حراسة مراكز العمل والأحياء، وتنظيم عمل جماهيري واسع للسيطرة على العاصمة وتأمينها."[123] وفي صبيحة 22 يوليو سيّر اتحاد نقابات العمال مظاهرة شارك فيها الآلاف من الشيوعيين وحلفائهم. كانت هذه المظاهرة أكبر وآخر مظهر لتأييد جماهيري للانقلاب إذ أنه بدأ يتهاوى في نفس اليوم.




أجبر العقيد معمر القذافي الطائرة البريطانية التي كانت تقلّ المقدم بابكر النور (الذي أُعلن رئيسا لمجلس قيادة الانقلاب) والرائد فاروق عثمان حمد الله على الهبوط واعتقلهما، وأسقط السعوديون طائرة عراقية كانت تقلّ وفدا بعثيا في طريقه للخرطوم. وفي الخرطوم خرجت مظاهرات نظّمها المؤيدون لنميري وتحركت قوة ضاربة من الدبابات هاجمت القصر الجمهوري.[124] وبعد ثلاثة أيام

---

122. حول نقد وثيقة **حول البرنامج** انظر فاروق محمد إبراهيم، "الحزب الشيوعي السوداني والدعوة لإصلاح وتطوير الأحزاب السياسية"، **قضايا سودانية**، العدد 4 (أبريل 1994)، ص 17–19.

123. القدال، **معالم**، ص 299.

124. في تفسير هذه القوة الضاربة يقول فؤاد مطر إن مصدرا سودانيا عاش "الساعات القليلة جدا التي أعيد خلالها النميري إلى السلطة" أخبره أن مصدر الانقلاب المضاد كان الكلية الحربية المصرية في جبل أولياء والتي انطلقت منها "مصفحات ودبابات اتجهت إلى القصر الجمهوري وضربت كل من اعترضها وأن سائقي



كان الانقلاب قد فشِل وعاد النميري للسلطة.

كان انقلاب 19 يوليو بحق "أقصر ولاية انقلابية ناجحة في تاريخ الانقلابات العربية وربما غير العربية"[125] وكان أيضا، قياسا على ما حدث بعد فشله، أكثر الانقلابات السودانية دموية. عُقدت في الحال محاكمات ميدانية حكمت على قادة الانقلاب بالإعدام رميا بالرصاص. واجهوا مصيرهم بشجاعة وهم يهتفون بحياة السودان. وواجه الموتَ أيضا بشجاعة الشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق اللذان حكمت عليهما محكمة عسكرية بالموت شنقا، وكانا أول سياسيين مدنيين يعدمان في انقلاب.

ظلّ عبد الخالق مختفيا أربعة أيام وفي صباح 26 يوليو تمّ اعتقاله في أم درمان. وفي صباح اليوم التالي مَثَل أمام محكمة عسكرية سُمح للصحفيين الأجانب بحضورها. كان عبد الخالق ثابتا أمام محكمة كان يدرك أنها قد اتخذت قرارها سلفا. وبعد الفراغ من المحاكمة رفع قضاتها حكمهم بالإعدام على عبد الخالق شنقا حتى الموت. وبذلك الحكم أصبح عبد الخالق ثالث سياسي مدني تحكم عليه محكمة عسكرية بالإعدام في انقلاب.[126]




وفي صباح 28 يوليو نُفذ حكم الإعدام. سار عبد الخالق نحو المشنقة ثابت الخطى وهو يهتف بحياة السودان

هذه المصفحات والدبابات هم على الأرجح من الضباط المصريين."
مطر، **الحزب الشيوعي السوداني: نحروه أم انتحر؟**، ص 59–60.

125. المصدر السابق، ص 68.

126. من مظاهر الصلف العسكري تمييز المحاكم العسكرية بين طريقة إعدام العسكري والمدني، فالعسكري يُعدم رميا بالنار بينما يُشنق المدني. وفي فترة عبود حكمت المحكمة العسكرية العليا على قادة حركة 9 نوفمبر 1959 بالإعدام شنقا، وكانت هذه المخالفة غير المسبوقة لقوانين القوات المسلحة فعلا قَصَد إهانة "كرامتهم" العسكرية.



وحياة الحزب الشيوعي.[127]

كان ما حدث في يوليو 1971 ثاني أكبر مواجهة للنظام بعد مواجهته مع الهادي المهدي والأنصار في الجزيرة أبا في مارس 1970 والتي راح ضحيتها آلاف الأنصار. ولقد أُعتقل آلاف الشيوعيين إلا أن ذلك لم يَقُد لمجازر شبيهة بمجازر الشيوعيين في إندونيسيا، واكتفى النظام بإعدام القادة الكبار واعتقال قياديين آخرين.[128]

كان انقلاب 19 يوليو مغامرة عبد الخالق الكبرى. وربما كانت قد توفرت لعبد الخالق فرصة أخيرة عندما حاول معارضوه زحزحته




127. في وصف اللحظات الأخيرة لعبد الخالق نقرأ شهادة المأمور عثمان عوض الله بأنه ''ذهب إلى المشنقة بخطى ثابتة وثياب أنيقة، لامع الحذاء، معطرا وباسما كعريس.'' ونقرأ أن المأمور سأله ''ألا تود ترديد الشهادتين؟'' وأن عبد الخالق أجاب ''اطمئن، لقد فعلت، بل وتوضأت، فور صدور الحكم، وصليت ركعتين قبل ترحيلي إلى هنا.'' (حسن الجزولي، **عنف البادية**، ص 309). لا نشكّ في ثبات عبد الخالق المستمدّ من شخصيته وثقافة بيئته السودانية ومن قناعته العميقة بموقفه الفكري والسياسي. ولكننا لا نشكّ في نفس الوقت أن الحديث عن الشهادتين والوضوء والصلاة إسقاط إسلامي ناشيء من هيمنة الإسلام التي تثقل صدور السودانيين وتكتم أنفاسهم ولا صلة له بلحظات عبد الخالق الأخيرة إذ أنه لم يكن شيوعيا فحسب وإنما كان ماركسيا أيضا، وإن لم يحرّر نقدُ الماركسية للدين عبدَ الخالق من أوهام الدين وأوهام الحياة الأخرى فمن سيكون قد حرّر من السودانيين؟

128. ما كان من الممكن أن تقع مجازر أندونيسيا في السودان لأن الغالبية الساحقة من أعضاء الحزب الشيوعي ينتمون عرقيا لمجموعات الشمال النيلي وهي نفس المجموعات التي تنتمي لها الطبقة الحاكمة. إن قوة الأواصر الأسرية والقبلية ما كان من الممكن أن تسمح للعنف ضد الشيوعيين أن يتجاوز حدّا معينا.

عـن موقفـه بالاسـتنجاد باللجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي السـوفيتي التـي ألقـت بثقلهـا وراءهـم وسـاندتهم مثنيـة عـلى "ثـورة" مايـو التـي تقـف في "طليعـة الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة العربيـة".[129] وعندمـا عجـز السـوفيت عـن زحزحتـه قالـوا إن موقفـه "غـير مفهـوم"،[130] إلا أن مـا لم يكـن يعلمونـه فهـو أنـه كان قـد حسـم أمـره وكان يحسـب لحظـة إزاحـة سـلطة "البرجوازيـة الصغـيرة" لتحـلّ محلهـا سـلطة "الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة". وكانـت اللحظـة تسـتلزم شرطـين حيويـين: نضج الأزمـة الثوريـة واسـتعداد الحـزب الشـيوعي لاسـتلام السـلطة. وربـما كان الـشرط الأول متوفـرا (فواقـع السـودان بعـدم اسـتقراره السـياسي وحربـه الأهليـة وتـردي وضعـه الاقتصـادي يجعلـه في حالـة أزمـة ثوريـة دائمـة) إلا أنـه سرعـان مـا اتضـح أن الـشرط الثـاني غـير متوفـر. وفي ثلاثـة أيـام انهـار مـا ظـل عبـد الخالـق يبنيـه عـلى مـدى اثنـين وعشريـن عامـا.

12

كيـف يمكننـا تقييـم عبـد الخالـق ومـا تركـه للحـزب الشـيوعي واليسـار؟ إن أول مـا يجـب أن نضعـه في اعتبارنـا ونحـن ننظـر لذلـك هـو أن الحـزب الشـيوعي إلى لحظـة إعـدام عبـد الخالـق كان حزبـا بنـاه عبـد الخالـق وهيمـن عليـه إذ كان عمليـا ذلـك التكويـن الـذي اجتهـد عـلى مـدى اثنـين وعشريـن عامـا في عجنـه وصياغتـه طبقـا لتوجهاتـه ليتحـوّل واقـع أنـه زعيـم الحـزب ومفكّـره لواقـع أنـه أصبـح إلى حـد كبـير هـو الحـزب.[131] وليـس هـذا بالأمـر المسـتغرب عـلى ضـوء تقاليـد

.129

Alain Gresh, "The Free Officers and the Comrades: The Sudaneses Communist Party and Nimeiri Face-to-Face 1969–1971," in *International Journal of Midddle East Studies*, vol. 21, no. 3 (August 1989), p. 403.

130. المصدر السابق، ص 404.

131. في الـصراع الـذي انفجـر عـام 1970 أثـار المعارضـون لعبد الخالق

المركزيـــة الديمقراطيـــة[132] التـــي ســـادت الأحـــزاب الشـــيوعية التـــي تكوّنـت في الحقبـة السـتالينية وعـلي ضـوء سـيادة الثقافـة الطائفيـة في الحيـاة السياسـية السـودانية (فاليسـار معـرّض أيضـا في هـذا الجـو الملـوّث بالطائفيـة للإصابـة ببعـض أعراضهـا).

كان عبـد الخالـق "ثوريـا" يحلـم بتغيـير جـذري في السـودان يخرجـه مـن جـبّ تخلفـه وينقلـه لرحـاب الاشـتراكية. إلا أن حساسـيته الثوريـة كانـت مختلفـة عـن حساسـية زيـن العابدين وعبـد الـرازق. فبينـما كان كلا مـن زيـن العابديـن وعبـد الـرازق عـلى اسـتعداد لإعطـاء الديمقراطيـة فرصتهـا وقبـول أن الاشـتراكية (ناهيـك عـن الشـيوعية) هـدف بعيـد وبالتـالي لابـد لتحقيقهـا مـن العمـل المتـدرج البطـيء في إطـار التحالـف مـع الأقسـام المتقدمـة مـن البرجوازيـة كان عبـد الخالـق عـلى اسـتعداد "لاختـزال" التاريـخ وحـرق المراحـل.

نظـر عبـد الخالـق مليّـا للواقـع السـوداني في شـماله وجنوبـه وشرقـه




هـذه المسـألة وقالـوا: "لقـد مـرت فـترة عـلى الحـزب سـادت الفرديـة فيها القيـادة وانعدمـت أبسـط صـور القيـادة الجماعيـة والمشـاركة في العمـل، وأصبـح مـا يقولـه سـكرتير الحـزب هـو رأي الحـزب الرسـمي." وفي نفـس الوقـت أدان هـؤلاء المعارضـون أنفسـهم للسـكوت "عـلى السـيطرة الفرديـة عـلى الحـزب وانتهـاك مبـادىء الديمقراطيـة والقيـادة الجماعيـة بـل والدفـاع عنهـا في كثـير مـن الأحيـان باعتبارهـا خطـا دفاعيـا عـن الحـزب ... " الوثيقـة رقـم 6 في مطـر، **الحـزب الشـيوعي السـوداني: نحـروه أم انتحـر؟**، ص207 و ص 250 عـلى التـوالي.

132. يقـول الخاتـم عـدلان في نقـد المركزيـة الديمقرطيـة في تجربـة الحـزب الشـيوعي: "... سـيادة هـذا المبـدأ هـي المسـؤولة عـن عقـم حيـاة الحـزب الداخليـة، وضيقـه بالخـلاف في الـرأي، وتبرمـه باسـتقلال الفـرد ونمـو شـخصيته المسـتقلة، وتوخيـه للطاعـة المطلقـة في كـوادره واعتبارهـا شرطـا أساسـيا للترقـي الحـزبي ... " **الشـيوعي**، العـدد 157، فبرايـر 1994، ص 46.

وغربه ووجد واقعا، كما وصفه في تقريره في عام 1970، يعاني ''من ثقل التكوينات قبل الرأسمالية في اقتصاده وفي علاقاته الاجتماعية. إنه مجتمع متخلف بكل معاني التخلف الاقتصادية والاجتماعية ... ''[133]
وكان عبد الخالق مقتنعا كل الاقتناع أن الحزب الشيوعي هو الجهة الوحيدة التي تمسك بمفتاح الحلّ، وهو الحلّ الذي ظل الحزب الشيوعي يطرحه على مدى كل سنوات كفاحه ولخّصت ملامحه الأساسية آخر وثيقة كتبها — **حول البرنامج**. إلا أن عبد الخالق كان مقتنعا أيضا بشيء آخر وهو أن فرص الوصول للسلطة عبر طريق الديمقراطية البرلمانية في هذا الواقع المتخلف ''بكل معاني التخلف الاقتصادية والاجتماعية'' فرص في غاية الضآلة إن لم تكن منعدمة.

ما العمل إذن لحزب يرى في استلامه للسلطة الخلاص الحقيقي والوحيد للبلد؟ من الطبيعي أن يخلُص عبد الخالق إلى أن ''العنف الثوري'' هو الوسيلة العملية والفعّالة لدقّ باب التاريخ وفتحه بعنوة. إلا أنه أراد أن يصل الحزب الشيوعي للسلطة باستخدام العنف في حدّه الأدني. ولهذا لم يجذبه النموذج الصيني أو الكوبي القائم على انطلاق عمل مسلّح من الريف يطوّق المدينة (وكان هذا موقف من انشقوا ليكوّنوا القيادة الثورية) وإنما جذبه النموذج الانقلابي الناصري.



ولعل أصرح تعبير عن خط العنف الثوري والخط الانقلابي في أدبيات الحزب الشيوعي ما أعلنته اللجنة المركزية بعد اجتماعها في نوفمبر 1964 وهي تقيّم ثورة أكتوبر من أن الثورة تعاني من أسباب قصور أساسية تتلخص في أن الطبقة العاملة لم تلعب ''دورها الطليعي'' لحظة انفجار الثورة، وأن الثورة ''تنقصها فرق مسلحة شعبية''، وأن الدور الذي لعبته القوات المسلحة كان محدودا. وخلّصت اللجنة المركزية إلى أن ''استكمال ثورة أكتوبر يحتاج إلى

133. ''التقرير المقدم من السكرتير العام للجنة المركزية''، مطر، **الحزب الشيوعي السوداني: نحروه أم انتحر؟**، ص 113–114.

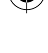


ثـورة ثانيـة تلعـب فيهـا القـوات المسـلحة دورا حاسـما."[134] وكانـت 19 يوليـو هـي لحظـة التدخـل "الحاسـم" وتفجـير "الثـورة الثانيـة" التـي تسـتكمل بهـا أكتوبـر جناحهـا الثـاني وتطـير.

13

قلنـا إن عبـد الخالـق كان "ثوريـا"، ولكنـه كان في نفـس الوقـت ثوريـا عـلى الطريقـة الماركسـية – اللينينيـة (وهـي نمـط مـن الثوريـة وصفـه الدكتـور فـاروق محمـد إبراهيـم بالأصوليـة.[135]) كان مؤمنـا إيمانـا عميقـا بقيـادة الطبقـة العاملـة للمجتمـع وقيـادة الحـزب الشـيوعي للطبقـة العاملـة نفسـها. وفي غيـاب الظـروف الموضوعيـة التـي تسـمح

134. الوثيقـة رقـم 6 في مطـر، **الحـزب الشـيوعي السـوداني: نحـروه أم انتحـر؟**، ص 199.

135. رغـم اتفاقنـا مـع الدكتـور فـاروق محمـد إبراهيـم في وصفـه هـذا واتفاقنـا معـه أن عبـد الخالـق تغلبـت فيـه شـخصية السـياسي عـلى المفكـر (وهـو أمـر مفهـوم لطبيعـة الخيـار النضـالي الـذي اختـاره منـذ وقـت مبكـر) إلا أن الدكتـور فـاروق أبـدى ملاحظـة لا نراهـا دقيقـة عندمـا قـال: "وقـد كانـت أصوليـة حسـن الـترابي والإخـوان [المسـلمين] في السـودان رد فعـل مبـاشر لأصوليـة عبـد الخالـق محجـوب والحـزب الشـيوعي السـوداني." ("الحـزب الشـيوعي السـوداني والدعـوة لإصلاح وتطويـر الأحـزاب السياسـية"، **قضايـا سـودانية** ، ص 19). إن أصوليـة حسـن الـترابي وحركـة الإخـوان المسـلمين في السـودان نابعـة مـن أصولية الإسـلام نفسـه ومصدرهـا الأولي هـو محمـد بينـما أن مصدرهـا الثانـوي (كحركـة إخـوان مسـلمين وفـدت مـن مـصر) هـو حسـن البنـا. وبهـذه الصفـة فـإن حركـة الإخـوان المسـلمين كانـت ستنشـأ في السـودان وبكامـل رؤيتهـا الأصوليـة حتـى لـو لم يكـن هنـاك حـزب شـيوعي. وعـلاوة عـلى ذلـك فـإن إسـلام السـودانيين يحمـل رؤيـة أصوليـة أخـرى ارتبطـت بتاريخـه القريـب وهـي الرؤيـة التـي عـبّرت عنهـا حركـة المهـدي.

بقيام الطبقة العاملة السودانية الجنينية بقيادة مجتمعها بنى عبد الخالق حزبا أعتمد أساسا على عناصر البرجوازية الحضرية الذين تشبّعوا بحُلم "مسيحي" ينتظر خلاص المجتمع على يد طبقة سيقوى ساعدها يوما ما لتفرض ديكتاتوريتها وتقود المجتمع نحو خلاصه الاشتراكي.

ولفهم عبد الخالق لابد في تقديرنا من اعتبار الدافع الأخلاقي الذي حرّكه إذ أنه كان يحمل حلم القضاء على استغلال الإنسان للإنسان وتحقيق الاشتراكية والمساواة. وهو حلم وتطلّع وتشوّف قديم وكبير — أقدم وأكبر من الماركسية – اللينينية. إن البرجوازي الذي يختار الاشتراكية يحرّكه بالدرجة الأولى هذا الدافع الأخلاقي. هذا ينطبق على ماركس وأنقلز ولينين وعبد الخالق. وبالمقابل فمن الممكن أن يكون العامل معاديا للاشتراكية، وهي الحالة التي تصفها الماركسية "بالوعي الزائف". وهذا المفهوم يمكّننا من إدراك حقيقة هامة وهي أن الواقع المادي الطبقي ليس كافيا لتعريف وفهم الموقف الاشتراكي وأنه لابد من إدخال عنصر الوعي في الصورة. والمشروع الاشتراكي نفسه غير ممكن بدون عنصر الوعي هذا لأنه في حقيقته فعل واعٍ لتغيير العالم تعبّر عنه مقالة ماركس الشهيرة: "إن الفلاسفة لم يفعلوا سوى أن فسّروا العالم تفسيرات مختلفة، إلا أن المطلوب هو تغييره."




ولقد جذب الحزب الشيوعي عددا مقدّرا من المنتمين للطبقة الوسطى (وبالذات من شريحة "الأفندية") والطلاب بالإضافة للعمال والمزارعين — ذلك القطاع الذي أصبح يُعرف بالقوى الحديثة كما أشرنا. انضموا له لأنهم حملوا أشواقا اشتراكية أصيلة ومن غير أن يقرأوا ماركس أو لينين بالضرورة. وانجذبوا له أيضا لأن خطابه حمل وعد الحداثة والانعتاق من أسر القديم والانفتاح على معارف العصر وثمراته. وهكذا لم يكن الحزب الذي بناه عبد الخالق عشبة غريبة كل الغرابة على تربة السودان، وإلا لما كان قد حقّق ما حقّق من نجاح نسبي في جذب عدّد مقدّر من السودانيين وفي خلق دائرة تأثير واحترام واسعة.

14

إلا أن تمسّـك عبـد الخالـق بالماركسـية – اللينينيـة وصيغة الحزب الشـيوعي ولّـد ثـلاث مشـاكل أدّت إلى مـا يمكـن وصفـه بانحسـار مـشروع الحـزب الشـيوعي: مشـكلة الموقـف مـن البرجوازيـة الوطنيـة ومشـكلة الموقـف مـن الديمقراطيـة ومشـكلة فشـل صيغـة الجبهـة الديمقراطيـة.

رغـم أن عبـد الخالـق كان عـلى اسـتعداد للاعـتراف بـدور محـدود للرأسـمالية الوطنيـة عـلى المسـتوى الاقتصـادي إلا أنـه كان عميـق العـداء للبرجوازيـة الوطنيـة عـلى المسـتوى السياسـي. وهكـذا أدخـل عبـد الخالق الحـزب الشـيوعي في قطيعـة عميقـة مـع أكثـر الطبقـات تأثـيرا وحركيـة وانفتاحـا تعليميـا في السـودان. وفي داخـل هـذه الطبقـة نجـد ثمـة قطـاع وطنـي عريـض ومؤثـر وهـو قطـاع البرجوازيـة الوطنيـة الـذي شـكّل القاعـدة الشـعبية للحركـة الاتحاديـة، وهـو قطـاع اتسـم وعيـه السـياسي تاريخيـا بالعـداء للاسـتعمار البريطـاني وطائفـة الأنصـار.[136] ولقـد رأى بعـض الشـيوعيين الأوائـل مثـل محمـد أمـين حسـين وعبـد الماجـد أبـو حسـبو وأحمـد زيـن العابديـن في الحركـة الاتحاديـة حليفـا طبيعيـا لحركـة اليسـار فهجـروا الحركـة الشـيوعية وانضمـوا لهـا. إلا أن عبـد الخالـق ناصـب الحركـة الاتحاديـة العـداء، وخاصـة في تجليهـا الأسـاسي أي الحـزب الوطنـي الاتحـادي. وبلـغ هـذا العـداء قمتـه في فـترة الديمقراطيـة الثانيـة بعـد أكتوبـر. لقـد ميّـز عبـد الخالـق في الخمسـينيات بـين قيـادة حـزب الأمـة وقاعدتـه الجماهيريـة عندمـا دخـل في تحالـف معـه إلا أنـه عجـز عـن هـذا التمييـز في السـتينيات بـين القيـادة الاتحاديـة وقاعدتهـا. وكان إصراره عـلى انتـزاع دائـرة أم درمـان الغربيـة مـن الأزهـري مـن أوخـم أخطائـه، وهـو خطـأ دفـع الحـزب الشـيوعي ثمنـه الباهـظ عندمـا

.136

Mohammad Nuri el-Amin, "The Impact of the Sudanese Unionists on Sudanese Communism," in *Middle Eastern Studies*, vol. 22, no. 3 (July 1986), pp. 418–421.

انضم الحزب الوطني الاتحادي لمعسكر اليمين الداعي لحلّه.

أما فيما يتعلّق بمشكلة الديمقراطية فإن الحزب الشيوعي ظلّ متمسكا بالموقف الماركسي – اللينيني التقليدي المعادي للديمقراطية البرلمانية والتعددية الحزبية. صحيح أنه كان يشارك في الانتخابات ونجح في إدخال عدد من النواب للبرلمان إلا أنها كانت مشاركة ما تتيحه هذه المؤسسة "البرجوازية" من فرصة عمل سياسي أكثر مما كانت مشاركة إيمان بالنظام البرلماني ومساهمة صادقة لتعزيزه. ولقد ظهر هذا بوضوح بعد انقلاب مايو إذ ساند الحزبُ النظامَ في قراراته لحلّ سائر الأحزاب وقمع قادتها وناشطيها مع المطالبة باستثنائه والسماح له بممارسة نشاطه. وكان عبد الخالق على استعداد لممارسة "العنف الثوري" عبر المشاركة الشعبية ضد أي محاولة انقلاب ضد النظام عندما دعا في تقريره عام 1970 إلى "أن تكوّن للجبهة الديمقراطية فصائلها المسلحة من طلائع الطبقة العاملة والجماهير الثورية وأن تدرب هذه الجماهير لقمع أي انقلاب رجعي في البلاد."[137] ورغم أن خطاب الحزب الشيوعي كان يستخدم كلمة "الديمقراطية" مرارا إلا أن هذا الاستخدام كان استخداما ذا محتوى طبقي بمعنى الديمقراطية الاجتماعية التي تخدم مصالح الكادحين وليس بمعنى الديمقراطية "البرجوازية". وهذه الديمقراطية الاجتماعية هي القاعدة التي ستبني عليها الطبقة العاملة ديكتاتوريتها. وهكذا فإن ما كان عبد الخالق يعد السودانيين به هو التخلّي عن ديمقراطيتهم البرلمانية التعددية وتبنّي نظام شبيه بنظام الاتحاد السوفيتي ذي الحزب الواحد.




نأتي الآن لصيغة الجبهة الديمقراطية وفشلها. تميّز عمل الحزب الشيوعي منذ الاستقلال بمفارقة غريبة إذ أنه مارس نشاطه وسط الطلاب، ذوي الوعي السياسي الأكثر تقدما وحركية، عبر صيغة

---

137. "التقرير المقدم من السكرتير العام للجنة المركزية"، مطر، **الحزب الشيوعي السوداني: نحروه أم انتحر؟**، ص 138.

الجبهــة الديمقراطيــة بينــما طــرح نفســه وســط الجماهــير، ذوي الوعــي السـياسي الأكثـر انخفاضـا، كحـزب شـيوعي.[138] وهكــذا وبينــما قــام وســط الطــلاب وعــاء يجمــع الشــيوعيين وعنــاصر اليســار العريــض – مــن يســميهم الشــيوعيون "بالديمقراطيــين" – إلا أنــه لم يَقُــم وســط الجماهــير وعــاء شــبيه بذلــك. ولقــد نظــر الشــيوعيون دائــما للديمقراطــي "كثــوري" لا يصبــح مكتمــل التكويــن إلا عندمــا يرتقــي وعيــه ويصبــح شــيوعيا. إلا أن غالبيــة الديمقراطيــين لا ينتهــي بهــم المطاف عــادة للانضــمام للحــزب الشــيوعي. ويذهــب عبــد الخالــق إلى أن هــؤلاء الديمقراطيــين الثوريــين "مفتوحــون للاقــتراب مــن الماركســية – اللينينيــة والضعــف يكمــن في الحــزب الشــيوعي لعــدم قدرتــه عــلى التصــدي لهــذه القضيــة ولصعوبــة مثــل هــذا العمــل."[139] وملاحظــة عبــد الخالــق هــذه تكشــف مــا ظــلّ عاجــزا عــن رؤيتــه (ومــا ظــل الماركســيون – اللينينيــون بشــكل عــام عاجــزون عــن رؤيتــه) وهــو أن هنــاك حساســية يســارية مختلفــة عــن الحساســية الماركســية – اللينينيــة، وأبــرز مــا يميزهــا نفورهــا مــن القوالــب النظريــة الجاهــزة واســتعدادها لانفتــاح فكــري أوســع عــلى مختلــف تيــارات الفكــر الاشــتراكي.



15

وهكـــذا نجـــد أن الحـــزب الشـــيوعي ذا المرجعيـــة الماركســـية – اللينينيـــة كان تاريخيـــا وعـــاء أضيـــق مـــن أن يســـتوعب قـــوى اليســـار العريـــض بـــكل تنوعهـــا وطاقاتهـــا (وينطبـــق نفـــس الأمـــر في تقديرنـــا عـــلى الحـــزب الشـــيوعي الحـــالي الـــذي أســـقط في مؤتمـــره الخامـــس في ينايـــر 2009 صفـــة

138. كان الجنــوب هــو الاســتثناء حيــث طــرح الشــيوعيون صيغــة حــزب الجنــوب الديمقراطــي، إلا أن الحــزب الشــيوعي واليســار بصــورة عامــة ظــلّ تاريخيــا ضعيفــا وســط الجنوبيــين بــما في ذلــك القطــاع المتعلّــم.

139. "التقريــر المقــدم مــن الســكرتير العــام للجنــة المركزيــة"، هــذه الجملــة ســاقطة مــن الوثيقــة في كتــاب مطــر ولكنهــا تظهــر في النســخة الأصليــة المطبوعــة بالرونيــو في صفحــة 49.



اللينينيـة وقـرر قـصر مرجعيتـه عـلى الماركسـية). إلا أن قـوى اليسـار العريـض هـذه لم تنجـح تاريخيـا في إقامـة تنظيـم سـياسي بـوزن الحـزب الشـيوعي. وهنـا تكمـن أزمـة اليسـار السـوداني.

إن أزمـة اليسـار السـوداني العريـض في تقديرنـا ليسـت بأزمـة فكريـة أو أزمـة برنامـج إذ أن ملامـح الأفـكار الرئيسـية لهـذا اليسـار وعنـاصر برنامجـه منبثـة بدرجـات مختلفـة مـن الوضـوح في فضـاء خطـاب التحـوّل والتغيـير وأشـواق وتصـورات السـودان الجديـد. إن الأزمـة ذات طبيعـة عمليـة ومبـاشرة لأنهـا بالدرجـة الأولى أزمـة وعـاء تنظيمـي جامـع يصـوغ عنـاصر برنامـج الحـد الأدنـى الـذي يجـذب ويفجّـر طاقـات أكـبر عـدد مـن التقدميـين الذيـن يريـدون أن يعملـوا مـن أجـل بنـاء سـودان علـماني ديمقراطـي اشـتراكي يتسـاوى مواطنـوه دون أي تمييـز وتتحقّـق فيـه كامـل كرامتهـم الإنسـانية وسـعادتهم.















الفهرس

رُتِّبت الأسماء أبجديا حسب ترتيبها العادي (الاسم الأول ثم الثاني ثم الثالث) إلا في حالات قليلة ومن بينها الأسماء الأجنبية. الهاء وسط القوسين (هـ) تدلّ على الإحالة للهوامش.



















ولقد جذب الحزب الشيوعي عددا مقدّرا من المتتمين للطبقة الوسطى (وبالذات من شريحة "الأفندية") والطلاب بالإضافة للعمال والمزارعين — ذلك القطاع الذي أصبح يُعرف بالقوى الحديثة. انضموا له لأنهم حملوا أشواقا اشتراكية أصيلة ومن غير أن يقرأوا ماركس أو لينين بالضرورة. وانجذبوا له أيضا لأن خطابه حمل وعد الحداثة والانعتاق من أسر القديم والانفتاح على معارف العصر وثمراته. وهكذا لم يكن الحزب الذي بناه عبد الخالق عشبة غريبة كل الغرابة على تربة السودان، وإلا لما كان قد حقّق ما حقّق من نجاح نسبي في جذب عدّد مقدّر من السودانيين وفي خلق دائرة تأثير واحترام واسعة.